

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

جـ بدل الاشتراك على سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

المروية

مجلة أسبوعية للقصص والدراسات

نصدر مؤقلاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الأولى

٢٠ صفر سنة ١٣٥٦ - ١ مايو سنة ١٩٣٧

العدد السابع

من أحسن القصص



فهرس العدد

صفحة	
٣٩٤	من ذكريات القرية ... أقصوصة مصرية ريفية ... بقلم أحمد حسن الزيات ...
٤٠١	الملاكمة ... بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني ...
٤٠٩	يوميات نائب في الأرياف ... صور مصرية ... بقلم الأستاذ توفيق الحكيم ...
٤١٤	دورثيا ... للكاتبة الإنجليزية مسز جورج ... بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب ...
٤١٩	تسى تانا ... أقصوصة يابانية ... بقلم محمد محمد مصطفى ...
٤٢٢	فلورين دور ومرجريت ... أقصوصة فرنسية ... بقلم ف. ف. ...
٤٢٥	على قم الألب ... عن الإنجليزية ... بقلم أحمد فتحي مرسي ...
٤٣٠	المرأة الحائرة ... لتوماس هاردي ... بقلم نظمي خليل ...
٤٣٧	الأوديسة ... لهوميروس ... بقلم الأستاذ دريني خشبة ...
٤٤٥	اعترافات فتى العصر ... لألفريد دي موسيه ... بقلم الأستاذ فليكس فارس ...
٤٥٠	سر أبي الهول ... لموريس رستان ... بقلم الأستاذ خليل هندواي ...



- ١ -

أفرانه اشتركو في زعامة القوة ، وانفرد كل منهم بموهبة من الواهب النادرة بحمله رجل واحد . فاللهدي يجيد الزمر في الأرغول ، وأحمد يتقن غناء المواويل الحر ، وحسن يحذق النقر على (الدربكة) ، وعلى بدير حفلات الأنس وغزوات الليل . وتقسّموا على هذه الزايا ، هوى الشبان وإعجاب الصبايا ؛ فكان لكل منهم حزب من الجنسين يتعصب له ويهتف به وينقاد إليه ، في غير وقاحة تسقط حياء الفتيات ، ولا خصومة تكدر صفاء الفتية

كانوا يدخلون الحشيش ، لا لأنه حكم من أحكام (الكيف) ومرض من أمراض المادة ، ولكن لأنه كان في زمنهم من صباوات الشباب ونزوات الفتوة . وكانوا هم وأتباعهم يسرقون القطن أيلًا من حقوله ، لا لأن السرقة فيهم أثر من أوثم الفطرة ، بل لأن قوى الشباب الجياشة كانت تبحث في رموسهم وتضطرم في نفوسهم فلا يجدون لها متنفسًا ولا مفيصًا إلا هذه الغزوات الليلية يتحدّون فيها بقذلة الحراس وسطوة الحكومة

كانت المزرعة البعيدة من مزارع (الأمير) تسمى وهي بيضاء تتألق باللوز المتفتح كما تتألق السماء الصافية بالكواكب الزهر ، ثم تصبح وهي سوداء كأنها الأرض بعد الجراد أو الدار بعد الحريق ؛ فيرعى (التفتيش) ويزيد ، ويرق (الركز)

كان أهل القرية يسمونه (البججوح) لأنه كان غيثًا من السكرم يصيب الأيادي المنكودة ، ونسيان من الروح ينمّش الأجسام المجهودة ، وشماعًا من البهجة يغمر النفوس الظلمة . كان ابتسامه الدائم يفيض على وجهه البرزخي إشراقًا من الروح المذهب بحمله أقرب إلى البياض المشبوب ؛ وكانت نكتته على طرف لسانه يرسلها في النامسية الجميلة فتفجّر الضحك من الصدور الكظيمة ، حتى وصفوه بأنه يضحك حجارة القبر !

كان جميل الهندام ؛ يلبس الجلابب الأنيق المحكم على صدر من الشامي أو الجوخ قد زرّ لفقيهه صف منضود من الأزرار الحمرية ؛ ويضع على رأسه طاقية من القماش الأبيض المحرم قد أمالها قليلاً إلى الجهة اليمنى من رأسه ؛ ويجعل في يديه المطرزين بالوشم الأزرق خاتماً أو خاتمين من الفضة البيضاء والعقيق الأحمر ؛ أما قدماء فكانتا حافيتين في القبط ، ناعلتين في القرية ؛ وهو على أية حال كان مثال الظرف للشباب ، ونموذج الفتوة في البلد

كان اللهدي (وهذا هو اسمه) سمحري القوام ، مجدول المضل ، جرى الصدر ، شهيم الفؤاد ، لا يتخاف عن الصف الأول في كل ما يصيب القرية من أعراس ومآثم وممارك ؛ فكان رابع ثلاثة من

ويرعد ، ودار المهدي تغنى وترقص وقد أولت
(للاجدهان) الذين قضوا ليالهم في العمل الجرى
وليمة سخية لا يقدم فيها غير الحلاوة الطحينية على
(الصواني) وفي (الأنماجر) ؛ ثم يخرجون بعد المأدبة
الى ضفاف النرعة الجارية فينامون على بساط النجيل ،
تحت الصفصاف الطليل ، يفقههم عبير الغليظة والسَّمد ،
وينفجهم نسيم اكتوبر المنعش وقد خالص من
حرور الصيف الى فتور الخريف . ثم يستيقظون
على أنغام الناي الحنون يرسلها المهدي في الفضاء
الصافي فتتمتزج بأغاني القرويات الجميلات وهن
يقطن في أحجارهن لوزات القطن العزيز
كان الناي أو الأرغول المهدي كاللسان
للاشاعر أو الحنجرة للبلابل ، ينفخ فيه روحه ، وبصور
به عواطفه ، ويرسل منه رسائله ، ويفعل به ما يفعله
كوبيدون بسهمه . فهو في النهار الروح الطروب
الهاثم في هبات النسيم ، يرفه عن اللاغبين في
استراحة الطنبور ، أو ظهيرة المحراث ، أو وحشة
الساقية ؛ وفي الليل رسول الطرب المتبوع في
حفلات الأعراس ، يجتمع هو ورفاقه الثلاثة في
دار العريس فيجتمع عليهم نساء البلد ورجالها
وأطفالها يتمتعون بنغمات المهدي ، ورقصات على ،
ونقرات حسن ، ومواويل أحمد

— ٢ —

نزحت الى القاهرة في طلب العلم ؛ ثم كنت
في الصيف أعود الى القرية فأنسجم في حياتها ،
وأختلط بينها وبناتها ، فأغسل دمي بهوائها الطاهر ،
وأجلو شموري بجوها المستنير ، وأهدد أحلام
مستقبلي في مهد الطفولة

ففي ذات صيف لاحظت أن بالمهدي مسحة
من هزال لا يملأها مرض ؛ ورأيت أنه قليل
الدعابة كثير الوجوم ، بطرق أطراق المغموم
ويذهل ذهول الشاعر . وأعجب أمره أنه أثر
الأرغول على الناي ، ومال عن سير الحرب الى أقاصيص
الحب ، وهجر مجالس الفتوة ، وحافظ على الصلوات
الخش في أوقاتها وراء الأمام . فسألته ذات يوم وقد

وكان الفتيات الناهدات يتكدسن في دهايز
الدار يتوسمن الوجوه الراغبة أو الخاطبة بميونهن
المسلية الحاملة . وكنا نندس بينهن ونحن صفار
فنسمع من بن شفاهن اللامس ذلك الإعجاب
المتردد الهامس بأولئك الذين يدخلون السرور في
كل قلب ، ويهيمون الإعجاب في كل نفس ،
ويقدفون الرعب في كل مكان خارج القرية . وكان
المهدي على الأخص غرض الأنظار المسددة ،

أنافه إلى عين رأبها كأنها طاقية المهدي ، فلا
يسمك إلا أن تصدق ما يقولون من أن أباهما بضن
بها على الفلاح الذي يبتذل جمالها في إدارة الطنبور
وخدمة الماشية

— وكيف تلقاها يا مهدي ورأى أبها فيك
هذا الرأي ؟

— ألقاها كل يوم وهي تسقى الجاموسة
من التربة ؛ تتركها تبتدر في الماء ثم تجلس
إلى تحت شجرة التوت فتنساقط أعذب الأحاديث
من غرام وشكوى ؛ وأصحابها وهي ذاهبة على
حمارها الأبيض القصير ، تحمل الغداء إلى أبها في
غيطه البعيد ، حتى إذا قاربناه جلست على حوض
الساقية أتمقها بنظري حتى ترجع فأعود معها إلى
القرية ؛ وفي بعض الأيام يذهب أبوها إلى السوق
فأقضى معها ومع أمها ذلك اليوم السعيد ، لا بكل
النظر الثابت في النظر ، ولا يفتر الحديث المتصل
بالحديث ، ولا نشعر بالمكان الذي يحصر ، ولا
بالزمان الذي يمر ، ولا بالموعد الذي يقترب

وربما ظلت النهار كله مع أبها في المزرعة
تضع بذور القطن في الأرض ، أو تنثر حب الذرة
وراء المحراث ، أو تنقي غلت الرز في وسط الماء ،
فلا أستطيع أن أراها ؛ فأحاول أن أخفف برحاء
الشوق عن قلبي العميد بالنظر إلى حمارها وهو
يتمرغ في الحارة ، أو إلى كلبها وهو رابض على
عتبة الباب ، أو إلى عجولتها وهي تمشي متثدة أمام
أمها إلى التربة

أرجو ألا تضحك ! إن حب ربا قد صور لي
الأشخاص والأشياء على غير الصورة التي تراها ؛
فأنا حقيقة أرى حمارها أجمل الحمر ، وكلبها أظرف
الكلاب ، وجاموسها ألطف الجاموس ! إن في

جاءني بعد انصراف الناس يسألني عن الكتاب
الذي يجد فيه أشعار الشيخ حسن جابر المغني :

— مالك يا مهدي تغيرت بمض التغير ؟ أبك
علة ؟ ألك حاجة ؟ فأجاني وقد استراح إلى موضوع
الحديث كأنما أصاب به نفساً من كربه :

— علتى (ربا) ، وحاجتى هي !

— ربا ؟ أتحبها ؟

— أموت فيها !

— ولم لا تحطبها إلى أهلها ؟

— يقول أبوها إننى أشرق غيطان الناس

وأعاطى الحرام ولا أصلى

— وماذا ترى أن تفعل ؟

— لا شئ . سبتر كما خاطبوها إلى ، وسيغير

أبوها بالطبع رأيه في

أنا أعرف ربا ! وهل في قريتي الصغيرة من
أجمله حتى أجهل ربا ؟ كانت وحيدة أبها الحاج
حسين ، فطبعها على الدلال ، ونشأها على الدعة ،
ووسع لها في الثياب والزينة ، وأعفاها من أكثر
عمل الفيط والبيت ، فشببت على أخلاق الترفين
خفيفة الزاد عزوفة النفس مرهقة الحس واهنة
الأعصاب رقيقة البدن ؛ ولكنها كانت على
الغاية من ملاحظة الشكل وصفاء البشرة وعذوبة
الروح وسحر اللامع . وأبلغ آيات الجمال فيها
عينان ساجيتان وأهداب وطف ينبعث منها
في القلوب مالا تستطيع اللغة أن تسميه
ولا العلم أن يصفه . فاذا خرجت ساعة الأصيل
في أترابها الجليات يحملان الجرار إلى النهر أو من
النهر ، مبرزها في مقدمة السرب بقدها المشوق
اللدن ، ومشيتها المختالة الموزونة ، وخاخالها الغضى
اللامع من خلال ذيلها الهفهاف ، وجرتها المائلة في

يعمل مع أبيها في الغيط ، ويكاد يعمل مع أمها في المنزل ؛ وهو الذي يسقى الجاموسة ويملف الحمار ويرعى شؤون الأسرة

— إذن قبل أبوها أن يزوجها منه ؟

— نعم ، قبل بعد أن تحقق أنه ترك الحرام وعزف عن اللهو وعكف على العبادة وأخذ عهداً على السيد القصبي . وهم الآن يرصدون الأهبة لحفلة العقد ، ويمدون العدة لزفة الزواج

— ٣ —

يبيع القطن ومسحت على الجيوب الفارغة يد قارون ؛ ومست الشبان الأعراب مواسم الهوى فذهب كل منهم يسعى لأهله البنت التي صفر لها (الصفائر) واشترى لها (العوايش) وأهدى إليها (الحلاوة) ؛ وأخذ الشيخ عبد الوهاب مأذون القرية ينتقل من دار إلى دار وتحت إبطه دفتره المريض وفي حزامه دواته النحاس ، بهقد العقد ويأخذ المندبل ويشرب السكر ويسمع طاعة البندقية التي تعان عقد الزواج للغيتيات المنتظرات حين يقول للمريس : « بارك الله لك فيها » ؛ وأقبل الزمار الصييت (أبو سعد) بطبوله ومزاميره ومهرجيه ، فلبث في القرية الساكنة أسبوعين جعلهما فيهما صورة صغيرة من (مولد السيد) ؛ وتساءل الوافدون على الأفراح : أين المهدي ؟ لم يظهر في زفة من الزفات ، ولم يسهر في سامر من السوامر ؛ وكان العرف الجاري أنه هو الذي يقول (الطبل) ، ويهندم المريس ، وينظم الزفة ، ويقترح الأدوار على (أبو سعد) ، ويرسم لوكب الزفاف الزائط مكن الوقوف وزمان الحركة . واقعد تحدثت المصاطب منذ شهرين أن زفاف ريا إلى المهدي سيكون افتتاح الموسم ، وأن شعراء (الربابة) ، ومنشدي المواويل ،

كل أولئك شيئاً منها لا أعرفه . ولو كنت تعلمت لعرفت . !

لقد أحببت غير ريا ؛ ولكنه كان حباً غير هذا الحب . كان حباً لم يتمد السطح ولم ينفذ إلى ما وراء الاحساس فلم يغير في عادة ولا صفة . أما حبها فقد خلقتني خلقة أخرى ، حتى لألمس المهدي القديم في إهابي فلا أجده : أصبحت لأميل إلى غزو الليل ، ولا أرغب في لهو النهار ، ولا أفكر في غير الخير . وفي بعض الساعات والحلوات أشعر أن في رأسي عالماً عجيب الألوان غريب الصور تموج فيه الزهور وتطوف به العرائس ، فأستغرق فيه استغراق الطفل في « صندوق الدنيا » ، وأحس سيلاً من المعاني ينهمر على لساني فأحاول الكلام فلا يعبر ، وأجرب الغناء فلا يجدي ، وأجد الأشجار التي حفظتها من عنبرة وأبي زيد لا تصور ما في خيالي ولا تنقل ما في خاطري . ولذلك جئت أسألك عن الكتاب الذي أجد فيه أشعار الشيخ حسن جابر المغني فانها أقرب إلى ما أريد

لا تظن يا سيدي أنني أزور لك كلام المهدي على عادة الكتاب ليطرد الحديث على أسلوب واحد . الحق أن المهدي كان بذكائه وعقله كاتباً لا ينقصه إلا القلم ، وبخياله وحسه شاعراً لا يعموزه إلا التقييد . هذه هي معانيه لم أنقص منها ولم أزد عليها . ولو كنت أذكر اليوم ألفاظه لما ترددت في تسجيلها انصرف المهدي عني وغاب فلم أعد ألقاه عندي ولا أراه عند غيري . فسألت عنه ذات يوم رفيقه أحمد صاحب الصوت الأبيض والموال الأحمر ، فقال وهو يبتسم في خبث ويشير في بأس :

— أوه ! إنه لا يكاد يفارق ريا ولا أهل ريا :

والشيخ عبيد الجبار هذا ضرير في حدود السبعين نحيل الخيال لاصب الجلد ، ولكنه مسموم الجسم متين العصب . كان شيخ الفقهاء ومعلم الصبيان في القرية ؛ وقد تنفس به العمر حتى ربي جيلين من رجالها ؛ فكان يتمتع لذلك بنفوذ واسع واحترام عظيم . وكان وافر اللب شديد الدهاء رزين الطبع ، ثم أكسبته مزاولة التعاليم على الأسلوب القديم سلاطة اللسان وخشونة اليد وقساوة القلب ، فقلما تخرج من كتابه متخرج دون أن تصاحبه عاهة في بدنه . لقد كان يضرب الصبي بالجريدة حتى يفقد الوعي ؛ ثم يتركه لأنه تعب لا لأنه أشفق . وكان إذا تهدد أو توعد ظهر غضبه التسممر في مقلتيه الجاحظتين على رغم انطفاؤهما ، فلم أر أعمى يؤثر بعينه غيره . وكانوا يسمونه (جلاد الشيطان) لأن الجن الذين يركبون الجيالات كانوا يرتعدون فرقا من طلعه . وايس الجن وحدهم الذين كانوا يرهبونه ، فقد كنا وكان الصبيان إذا مر الشيخ عبيد الجبار في زعبوطه الأسود ، يده على كتف قائده ، ورأسه الدقيق غائب في عمامته الضخمة ، وخده الشاحب مصعق للناس ، وأذنه المنصوبة مرهفة للغط الطريق ، وقفنا صامتين راهبين كأن جنازة تمر !

— ع —

لقد كنت وأأسفا من شهود هذا الحادث الفاجع ، فأنا أقصه عليك كما حدث . لا يزال على طول العهد حيا في ذاكرتي رهيبا في نفسي كأنه وقع أمس . والحوادث اليسيرة تجدد خلودها في أعماق الحافظة الصغيرة ، فكيف بالحادث الجليل ؟

جاء المهدي بالشيخ عبيد الجبار بعد صلاة العشاء إلى ربا ؛ وأقبل أهل الحارة ومن سمع من رجال القرية إلى البيت الحزين القلق يساهمون في

ولاعبي البرجاس ، وضاربي (الحطب) سينقاطرون على البلد يؤدون إلى المهدي بعض ما أولاهم في سالف العهد من أباد وصنائع

— هل عندك يا علي خبر عن المهدي ؟ هل هو مريض ؟

— هو في أمان الله ، ولكن ربا مريضة

— منذ كم ؟

— منذ شهر

— وماذا تشكو ؟

— يقولون إنها (معذورة) ، فهي لا تتكلم ،

ولا تنبسم ، ولا تشتهي الطعام ، ولا تذوق السكرى .

وقد عُدتها بالأمس فوجدتها مسبونة على الحصير ،

زائفة البصر ، ساهمة الوجه ، ترفع بدأ وتضع أخرى ،

ثم تبكي من غير سبب ، وتنتفض من غير حمى ،

وبدركها الذهول حيناً فتغمض عينيها ولا تتحرك .

وكانت أمها على رأسها تروّح عليها ، والمهدي بجانبها

يذب عنها ، وأبوها أمام الحجرة يدخن في تفكير

وحزن ، فسألت أمها :

— كيف حال ربا اليوم ؟

— كما ترى . ولقد ذهبت اليوم ومي مندباها

إلى الشيخ فرج ؛ فقاس الأثر وفتح الكتاب ،

ثم قال إنها ألقت ماء بالليل أمام الفرن ولم تبسمل ،

فوقع على أطفال من الجن فركبها أبوم . ولقد

كتب لها حجاباً كبيراً حملناه إليها فحملته ، ورسم

بالخبر أشكالا في طبق ثم محاهها بالماء وسقيناها

إياه فشربته ؛ ولكن ربا لا تزال ذابلة ذاهلة ،

لا يطمئن بها فراش ، ولا يسكن لها عصب !

— ولماذا لا تطالبون لها الشيخ عبيد الجبار ؟

— لقد فكرنا في ذلك . وسيدهب المهدي

بعد صلاة العشاء يدعوه

اليسرى ما فعل باليد اليمنى ؛ ثم تناول الرجائين متعاقبتين فكتب على أظفارها العشرة بأملأه الفقيه عليه . ثم أعلن بمد ذلك جلاد الشيطان أنه حبس العفريت في جسمها فلا يستطيع أن يخرج . وانقلبت سحنة الشيخ فجأة فأربد وجهه ، وجحظت عيناه ، وغلى دمه ، وصاح في غلامه :

-- جاد ! هات (الفلقة) !

وجاء جاد بالفلقة فوضعها في قدمي ربا مكان الخلل الفضى اللامع ؛ ثم شدها وأمسك من طرف وأمسك شاب آخر من طرف . واستل الأعمى جريدة من الحزمة وبرك على ركبتيه وبصق في يده ، ثم أنحى على المريضة النهوكة ضرباً دراكا يهدم جسم الجان بله الانسان !

كانت ربا تصرخ صراخاً عالياً متوالياً من الضرب الموحج ، والقوم صامتون وفي سرهم الشماتة بالشيطان الذي يلتمس الرحمة فلا يجد ، ويحاول الحزيمة فلا يستطيع

تخطمت الجريدة الأولى فوقف عبد الجبار وأقبل بوجهه المتضمر على ربا الضارعة وقال في تهديد وحنق :

— هيه ! قل لي ما اسمك ؟

— ؟

— أمؤمن أنت أم كافر ؟

— ؟

— قل لي من أى القبائل والفصائل أنت ؟

— ؟

— أتأهدينى على تركها وأنا أسامحك

وأطلقك ؟

— ؟

كان الأعمى يلقى هذه الأسئلة المتجدية على العفريت الأسير في جسم ربا ، وربا تئن أنيناً متصلاً

الرجاء والدعاء والأسف ، فلأوا الحجرة وشغلوا الدهليز وسالوا خارج العتبة . وكانت ريا ساهمة كأنها صورة الحلم الهنىء ؛ فلما دخل الشيخ عليها حملت فيه بعينها ثم صرخت صرخة شديدة ؛ فدمدم النساء أسفات وقال بعضهن لبعض : عرف جلاده ففرع ! ليت ذلك كان من زمان !

جلس عبد الجبار عند قدمي ريا ، وجلس بجانبه عريف الكتاب ومعه حزمة من جريد النخل المشذب المصقول مما يستعمله في تأديب الغيلاظ الشداد من « أولاد الكتب » ، ودواة من الحزف الأخضر ، وقلم من القصب الأبيض ، وخزقة بالية معقودة على شيء . ثم أخذ يسألها سؤال العارف :

— ماذا بك يا ريا ؟

— لا شيء يا سيدنا

فلما رأى سيدنا الصوت طبيعياً والجواب عادياً قال لنفسه وهو يسمع الناس :

— هيه ! لقد هرب ؛ ولا بد من استحضاره ثم فك العقدة عما في الخزقة فاذا هو فئات من اللبان والجاوى . ودعا العريف بموقد النار فوضع فيه البخور فأفعم أرجه الحجرة . حينئذ أخذ الشيخ يتلو العزائم بصوت يشبه الدمدة فلا يكاد يتبين منه حرف . ثم كان يتحسس عند بعض المقاطع فيشتد ويحتد ويذكر بعض الأسماء الغريبة ، حتى هبج دخان البخور ومهمة الشيخ وازدحام الحجرة أعصاب المريضة المسكينة فاختلجت أطرافها اختلاجا أحسه الأعمى ، فأمسك عن التلاوة وأمر برفع الموقد وأشار إلى عريفه أن يبدأ العمل

تقدم العريف المحرب وتناول يدها اليمنى وكتب على ظفر إبهامها كلمة أملاها عليه الشيخ همساً ؛ ثم كتب كلمة أخرى على ظفر السبابة ، ثم على أظفار الوسطى والبنصر والخنصر ، وفعل باليد

مأجاً فرعها وصرقاً دمهها — يصب على جسمها
الناحل هذا العذاب ؟

لم تمد رياء تصرخ ولا تستغيث ، وإنما كانت
تنتفض للضربة والضربة انتفاضة المسوع ؛ ثم
ترسل مدامعها الغزار في صمت ، وتقاص شفيتها
الرقيمتين في مضض . ووقعت عين المهدي على هذا
الوجه الشهيد المحتضر فاسترخت يده وارتجى على
الأرض مستخرطاً في البكاء . فأنهر عبيد الجبار
هذا الضارب الخروع وتناول الجريدة وصاح :
— جاد ! أعد نظرك في الأظافر فلعل بعضها

قد امتسحت عنه الكتابة فيهرب

فمحض العريف أطراف البنان المرسلة وأصابع
القدمين المعزقة ، ثم قال في اطمئنان الواثق بعمله :

— الكتابة سليمة يا سيدنا

حينئذ أخذ الجبار يفكر في عذاب آخر ،
ولكنه أراد أن ينذر به الجنى قبل تنفيذه ؛ فزحف
حتى بلغ رأس المريضة ، ثم ألصق فيه بأذنها وأخذ
يسارها . ولكن ما باله ارتبك ؟ إنه ولا ريب لاحظ
كما لاحظ القوم أن رياء تنسج نسا لا يكاد يظهر على
المرأة ، وأن المفريت مهما عذب لا يخمد هذا
الحدود ، فأحس الخطر وتوقع الكارثة . وأراد الخبيث
أن (ينقذ الموقف) كما يعبرون فقال :

لقد وعدني أن يشاور نفسه ؛ فدعوه الآن هادئاً
يفكر حتى يصبح الصباح !

وفي الصباح ذهب عبد الجبار وادعاً يفتح
الكتاب ، وذهب أبو رياء هالماً يفتح القبر !
ومنذ ذلك اليوم المشؤم مات المهدي الذي
عرفته في أول القصة ، وعاش في جسمه المهدود
مخلوق آخر لا هو شخص ولا هو شيء !

الزيات

في استرخاء وخفوت وضراعة ، والقوم حولها
ينتظرون إجابة الشيطان وأبصارهم شاخصة
وأنفاسهم معلقة ، والألسنة خارج الحجرة تتناقل
صمته الغريب في همس وعجب ، والشيخ عبد الجبار
يحدق بعينه البيضاء في عين المصباح الخافت ويقول :
يا سلام ! ما رأيت أعند من هذا الملعون ! يا جاد !
هات الجريدة الثانية !

وشد الفلقة جاد من جديد ، وبرك الشيخ
الجبار على ركبتيه من جديد ، ثم شرع يدق القدمين
النحيلتين دقاً عنيفاً بالجريدة الثقيلة ؛ وهبت قوى
الفتاة المذخورة تدافع الألم الممض بالصراخ
الدامع والاستغاثة المبتهلة :

— أنا في عرض النبي ! أنقذني يا أماء !

أعثنى يا مهدي ! أنا أموت ! ليس على شيء ! آم !

لم يجد هذا الهتاف المؤلم سمماً من أحد ؛ لأنهم

يعتقدون باخلاص أن المارد العنيد يخدعهم عن نفسه ،

وأن رياء الحقيقة النائمة في غلاف من المفريت لا تدرى

ولا نحس . وكأنت يد الجبار من الضرب فخل محله

شاب قوى . ونحطمت الجريدة الثانية والثالثة ،

وجلاد الشيطان بعيد الأسئلة بين فترة وفترة

فلا يسمع إلا الجواب الطيبى أو الأنيب المستسلم

وزاد عجب الناس من عناد الجنى الكافر ،

واشتد سخط المهدي على هذا الرجيم الذي غلبه على

حبيبته ، فتناول الجريدة الرابعة ووقف بجانب

الأعمى وقد كان يهمهم ويدمدم ، وأخذ يلهم قدمي

حبيبته الميودتين بالمصا المضرسة المبرومة ! ورياء ..

أوه ! لا تسألني حينئذ عن حال رياء . إن في بعض

مظاهر النفس ودلالات الملامح ما يقف أمامه البيان

الإنسانى أبكم لا ينطق وعيياً لا يبين . وماذا عسى

اللفظ المعصى الجامد أن يصور لك حال رياء وقد

فتحت عينها الداميتين فوجدت المهدي —



السنية ومعهما خادمها يحمل لها الكتب والكراريس ويعني أن أكلهما في الطريق إطاعة لأمر « الست » فأكد أجن من فرط الحب والغيرة والشعور بما أنا فيه من المهانة والتحقير . وأحسب أن كراهة امرأة عمي لي وحبى لبناتها هما اللذان جعلاني رجلاً مستقلاً وأغرياني بما صنعت ، فقد تحولت من الأزهر إلى دار العلوم ، وقد دفعني إلى ذلك أمور منها أن مستقبل الطالب في دار العلوم معروف ، وأن الطالب فيها كان يأخذ في الشهر جنيناً على سبيل الإعانة . فتحوّل إلى دار العلوم كما قلت من غير أن أراجع عمي أو أستاذيه ، وصبرت على ذل العيش كالخدم في بيت عمي شهوراً ، وادخرت الجنيهات التي قبضتها من المدرسة في أواخرها ، ثم تركت البيت واستأجرت غرفة شاركني فيها طالب آخر وفرشناها بالزمن ما يلزم وأقمنا فيها . ويكفي بياناً لما فررت منه أن أقول إن بنت عمي هي الوحيدة التي افتقدتني وشمرت بانقطاعي عن البيت ، وكان الحب بيني وبينها متبادلاً ؛ فلما لقيتها وحدها مرة وأخبرتها الخبر فرحت وأثنت علي وشجعتني

ولا أطيل - تخرجت من دار العلوم وأصبحت مدرساً ألقاضى في الشهر ثمانية جنيهات لا واحداً فقط ، وعينت في مدرسة بنها الابتدائية ، وبشاء الله أن يعين عمي وكيلاً للمديرية فلولا كراهة امرأة

لا أدري إلى هذه الساعة كيف أمكن أن أدع هذا يحدث . . ولو أن أحداً تنبأ لي به : قرأه في فجاجة القهوة ، أو طالعه سطره من الخطوط التي يرسمها بأصبعه على الرمل ، أو تبينه من اجتماع ورقات معينة وهو ينشر الورق كله أمامه ، أو من تقارب بعض الودعات وهو يلقيها من كفيه على الأرض - أقول لو أن أحداً تنبأ لي بهذا وأنا صبي لكان الأرجح ألا أصدق ، ولكان المحقق أن أدفع جبينه بأصابع يميني وأقول له : « نح » فقد كنت في حدائتي « شقياً » جداً . وكانت امرأة عمي تذكرهني وترغم أن كراهتها راجعة إلى « شقاوتي » ولكني - حتى في حدائتي - كنت أدرك أن كرهها لي سببه أنى فقير وأن عمي يمولني ويكفاني ، فقد مات أبواي في طفولتي . وكان عمي ضعيفاً لا يستطيع أن يخالف لزوجته إرادة أو أن يهد لها في أمر . فتركها تحرمي التعليم الحديث وترسلني إلى الأزهر « مجاوراً » ضناً منها عليّ بأكثر من القوت الضروري والكسوة التي لا غنى عنها . وكانت تفرق بيني وبين بنت عمي التي كنت - ومازات - أحبها ، فكنت أفضي ساعات الدرس والنوم في المنظرة لأن امرأة عمي لا تأذن لي في الصمود إلا في الأعياد - لتقبيل يدها - وكنت أرى بنت عمي تذهب إلى المدرسة

أفرغ من واجبي وأذهب الى بيتي . ولن تراني
زكية شيخاً لأنها لا تذهب معي الى المدرسة فأنا
لا أبذو لها الا أفندياً كما تحب

وكانت هذه بداية الشر كله ، فقد قالت لي
يوماً وهي تسير معي في الحديقة : « اسمع ياسيد ! لماذا
تهمل الألعاب الرياضية في المدرسة ؟ »

فالتفت اليها مستغرباً وقالت : « أهمها ؟ ..
ماذا تعنين ؟ »

قالت : « أعني أنك لا تشترك فيها ... تترك
تدريب التلاميذ لهذا الأمل ... انه أمي في الواقع
وان كان يكتب ويقرأ ... هو جندي لا أكثر
وقد يكون أقل من جندي »

فقلت : « وهل تريد أن يتولى تدريب
التلاميذ على الألعاب الرياضية فيلسوف ؟ »
قالت : « لا ، ولكن الروح الرياضية لا يبثها
إلا متملم »

قلت : « ولكن ماذا أصنع ؟ . إن هذا
ترتيب وضمته الوزارة ولا شأن لي به »
قالت : « الوزارة لا تمنعك أن تعني بتلاميذك
وتتطوع لمساعدتهم »

وابتسمت لي ، وانهارت حصون المقاومة .
وأحسب أنا معشر الرجال ضعاف . ولم تتركني في
ذلك اليوم حتى بذات لها الوعد أن أعني بالألعاب
الرياضية وأن أتطوع لمساعدة التلاميذ

ولم يكن الأمر سهلاً فقد كنت في المدرسة
شيخاً ، وعسير على من يلبس ثياب الشيوخ أن
يشترك في ألعاب . وخلق بمنظره حين يتحول من
شيخ في قفطان سابغ وجبة تفيض عليه الاحترام
والوقار ، وعمامة مكورة ، إلى رجل نصف عار في
قميص قصير وسروال أقصر ، أن بضحك التلاميذ

عمي لي لوسمعي أن أقيم مع عمي في بيت واحد ،
فقد صرت أستطيع أن أؤدي نفقات معيشتي
وتسكالي إقامتي ، ولكن هذا لم يكن ميسوراً .
على أن استقلالي لم يثقل على نفسي ؛ وكان يسرني
على العموم أني صرت أستطيع أن أزور بيت عمي
زيارة من لا يحتاج إليه ، ولا يطمع في شيء منه ،
وأن أرى « زكية » وأنعشي معها في حديقة
البيت - خاصة بالطبع - وأن أبثها حبي الذي
لم تحمد وقته الأيام

وكنت شيخاً - بمائة وجبة وقفطان -
فقلت لي زكية يوماً : « لماذا لا تغير هذه الثياب ؟ »
فلم أفهم وقلت : « غيرها ؟ .. وما عيبها ؟ »
قالت : « اليبس ثياب الأفندية ... كأني »
قلت : « اسمحي لي أن أقول إنني لا أحب أن
أكون كأبيك »

قالت : « أعرف ذلك .. إنه ضئيف ولا شك ..
ولكنك لا تقلده هو إذا اتخذت ثياب الأفندية .
كل الناس يلبسونها .. »

قلت : « لا أدري هل تسمح لي الوزارة
أو لا تسمح ؟ . ولست أحب في فاتحة حياتي
الجديدة أن أتعرض لخلاف في هذا الموضوع »
فتركت كل هذا وقالت : « إنني أريد ذلك ..
يسرني أن تفعله .. ألا تحب أن أكون مسرورة
بك ؟ سيد !! ... من أجل أنا ... »

فلم يسمعي أن أظل أعترض بعد هذا . وأعددت
عدتي لتغيير الثياب ، وكانت كلفة هذا التغيير
كبيرة ، وكان هذا هو الذي يصدني عن التغيير .
أما الوزارة ورأيها فقد أقيمت لها ثياب الشيوخ
ألبيسها في المدرسة ، وأخلعها حين أغادرها ، وبذلك
اتفقت غضبها المحتمل ، فلها شأن بي بعد أن

بالرجل الذي يملكك ... دع هذا لي «
فكر كنهها وأنا أحدث نفسي أن في زكية مشابه
من أمها ... أعني أنها ورثت قوة الشكيمة والارادة
وجاءني يوماً جندى من جنود البوليس وكان
مارداً ضخماً مفتول العضل ، ولم أكن دونة جسامه ،
لخيانى كأنى ضابطه ، ثم شرع يحسنى كأنما كان
يخشى أن أكون مصنوعاً من الجبن العارى . ثم
ربت على كتفى وقال : « عفارم » كأنما كنت قد
صنعت نفسي !

ولا أطيل ... بدأ التدريب بكل أنواعه حتى
بأنقال الحديد ، وكنت لا أفهم لماذا كل هذا ،
ولكن زكية كانت ورأتى تستحشني وتشجمني ،
وكانت امرأة عمى قد سافرت الى مصر ، فصار في
وسع زكية أن تخرج معي أحياناً للتنزه على النيل
وكانت سافرة لا تتحجب ، وكان قد عُرف أن
عمى وكيل المديرية ، فالذين يرونها معي يملكون أنها
بنت عمى ، فلا بأس من خروجها معي . وانتقل
التدريب من البيت - حيث بدأ - الى مخفر
البوليس حيث الأدوات التي صرنا نحتاج اليها ولا
سبيل الى نقلها ، مثل المتوازيين « والحصان »
والمقلة وما إلى ذلك ، واتفقت كل هذا فقد أحسست
من نفسي إقبالا عليه ورغبة فيه ، رمسني أن ذهب
اللحم المترهل وأنه اكتنز وصار عضلاً قويا . وكان
معلمي يأبى كل جزاء أو مكافأة ، وكنت أعجب
لهذا ولا أرتاح اليه ، فان كون وكيل المديرية عمى
لا يبيح لي أن استغل الرجل على هذا النحو ، غير أنه
كان يؤكد لي أنه يجسد سروره ولذته في تعليمي
فكنت أسكت ولا أفهم . وأنى لي أن أعرف أن
بنت عمى هي التي تدفعه وتجزيه ... ؟

وقال لي الرجل يوماً : « إنك يمكن أن

ويغيرهم بركوبه بالمزاج والعبث ، ولا بأس بالألعاب
الرياضية ولكن البأس كل البأس أن أصبح موضع
استمراء . ولم يكن يسعى أن أتقدم إلى الناظر
معبراً عن رغبتى في التطوع لمساعدة التلاميذ على
شيء لا أحسنه أنا أولاً ، ولا نجماني ثيابي صالحاً
له ثانياً . لهذا عدت إلى زكية وقلت لها إنى
نوبت أن أغير ثيابي رسمياً أولاً ، وأن أندرب على
هذه الألعاب ثانياً ، فدهشت وقالت : « تغيرها ؟
أو لست قد غيرتها ؟ . ألسنت تلبسها ؟ »

قلت : « الجواب نعم ولا ... ألبسها خارج
المدرسة وأنصوها في المدرسة وأعود شيخاً »
قالت : « ولكن لماذا ؟ .. ان هذا ... هذا ...
لا مؤاخذه ... جبن ... لا يليق بك ... إنى أحب
أن تكون شجاعاً »

فلم يسعى إلا أن أكون كما تحب - شجاعاً
ومن الغريب أنى لم أجد أثرأ لما كنت أخشاه
فقد استشرت الناظر ، وكان رجلاً وقوراً جريئاً
كريمًا على نفسه وعلى رؤسائه ، فقال لي : « إنى
أراك في الخارج أفنديا ، واحسب ان التلاميذ
برونك أيضاً ، فلماذا لا تكون أفندياً دائماً ؟ .
أما الوزارة فلا أرى أن لها شأنًا ، ثم إنك هنا في
بناها بعيد ، ومع ذلك من الذى يعرفك ؟ . على كل
حال ضع القوم أمام الأمر الواقع »

فقلت ، وبقي التدريب الرياضى ؛ فخطر لي ان
أستعين بالمعلم الأسمى - كما تصفه زكية - ولكنى
آثرت أن أستشيرها أولاً ، فنهتني عن الاستعانة
بمعلم المدرسة ، وقالت : « يجب أن تظهر لهم جميعاً
أستاذاً كبيراً حتى فيما كان الظن أن تجهله »

فسألتها : « ولكن من إذن يعلمنى ؟ »

قالت : « لا تحمل همًا ... سأبعث أنا إليك

يكون منك ملاكم عظيم»

فسألته : « ملاكم ؟ »

قال : « نعم ... ليس أسهل من هذا ... لماذا

لا تتدرب على الملاكمة ؟ »

قلت : « ولكن لماذا .. ما الداعي ؟ »

« قال : لم لا ؟ ... »

فلم أر بأسا ... ولم لا — كما قال — وكنت

قد شغفت بالرياضة بعد أن أنقذتها وخذقتها وبرعت

فيها وصرت موضع إعجاب زكية ، ولكنني قات

للرجل : « إسمع يا صميذة (وكان هذا اسمه) إني

معلم ، ولا يليق لي أن أظهر للتلاميذ بأنف مبسط

أو شفة أو عين واردة سوداء ، فإذا كان لابد من

الملاكمة فلا تضربني بشدة »

فقال : « إن الخوف علىّ منك لأعليك مني »

فسرني هذا وأقبلت على الملاكمة أتتلمها

بسرعة ، وكان صميذة يقول لي إن ضربتي رجلاي :

أي أني سريع الحركة خفيفها جدا ، وأن هذه المزية

خليقة أن تفسد على أقوى الخصوم مزاياهم الأخرى .

فلما سمعت منه ذلك صار همي أن أحسن استغلال

هذه المزية الى أقصى حد وأبعد مدى

وصرت ملاكما — كما شاء الرجل — وكنت

في أثناء ذلك قد تطوعت للمعاونة على تدريب

التلاميذ ، ثم صرت أنا السكل في السكل — كما

يقولون — ولم يبق لمعلم الألعاب إلا الخدمة ، فما

كان يحسن شيئا في الحقيقة — أعني شيئا يستحق

الذكر — وفرح الناظر بذلك ومدبصره الى آخر

العام الدراسي ، وراح يتصور الحفلة الرياضية التي

سيقيمها ويدهش بها رؤساءه في الوزارة . وكان

لا ينفك يتحدثني عنها ويطلب رأيي فيما ينبغي أن

يكون فيها ، ويقول لي إنه يريد أن يدعو فلانا

وعلانا ، وترقانا ، من الرؤساء ، ومن رجال الإدارة

ومن الأعيان وآباء التلاميذ الى غير ذلك . وأنا

مكب على عملي واثق أنه سيرفعني في الوزارة درجات

وقالت لي بنت عمي يوما : « لماذا لا تتذكر

شيئا ؟ علم التلاميذ الملاكمة . ألف فرقة منهم لها ..

تصور وقع هذه المفاجأة في الاحتفال السنوي .. »

قلت : « فكرة والله .. ولكن هل يوافق

الناظر ؟ لابد من موافقته كما تعلمين »

قلت : « أوه ... الناظر ! ... كلما قلت لك

شيئا تقول لي الناظر ؟ ... هل تتصور أن الناظر

يسوؤه أن تبيض وجهه ؟ .. كون الفرقة وفاجئه

هو أيضا بها .. »

ففعلت . وكنت في أول الأمر أستعير قفازات

الملاكمة من ملعب البوايس ، ثم رأيت أن أذهب

بالفرقة التي انتقيت أفرادها من كبار التلاميذ الى

ملعب البوايس ، فلما دنا العام من ختامه كان بعض

أفراد الفرقة صالحا للعرض الى حد ما

وكنت أنا في خلال ذلك مواظبا على التدريب

لا أنقطع عنه ولا أقصر فيه ، فاتفق يوما أن لسكني

صميذة على حنكي لسكرة قوية على خلاف عادته ،

فكألتني وأحسست الدم يصعد إلى رأسي من فرط

الغضب والغليظ ، وأنهات عليه غير عابئ أو مترفق

وكنت أتوقع أن يشور بي كما ثرت به ، ولكنه لما

أحس وقع اللسكات ابتسم ونأى عني وقال :

« يكفي .. يكفي .. الآن اطمان قلبي »

فوقفت وسألته : « ماذا تعني ؟ »

قال : « لا شيء .. أردت أن أجربك . الآن

صرت ملاكما . تستطيع أن تنازل من شئت »

فابتسمت مسرورا وإن كانت مناظرة أحدهم من

الناس لم تجر لي في خاطر فما كنت أعلم من أجل

البدنية . وكان الناظر ربما مازحني وقال : « والله
فلححت يا شيخ سسيد » فأقول : « والله يا حضرة
الناظر ما كان لي هذا على بال »
ولو استطعت لقات له إن الفضل لبنت عمي
زكية

وجاء يوم الحفلة بعد طول الاستعداد - أي
العناء - فقد كانت تلك الأيام أيام جهود متواصلة
من الصباح إلى المساء ؛ وكان أشق ما فيها أن زكية
وصميذة كانا بصران على استمرار تدريبي على الملاكمة
كأنما كنت سأحترفها ، أو كأنما أصبحت حياتي
رهنًا بها وبمبالغ إتقاني لها . وما أ كثر الليالي التي
عدت فيها إلى البيت وانطرحت على الفراش وعت
إلى الصباح - بثياني - كالقنبل

وأقيمت الحفلة على ما رسمنا ورتبنا . وكان
المدعوون حشدًا كبيراً من الموظفين والأعيان
والرؤساء في وزارة المعارف . وكان الناظر بادي
السرور ظاهر الاغتباط ؛ ولكني كنت أتوقع
أن يكون استقبال المدعوين والتلاميذ لتلاميذي
الملاكمين خيراً مما كان وأكرم ، فقد كان هذا جديداً
في ألعاب المدارس ، وكانت تلاميذي جديرين
بالتشجيع والمطف ، لا بهذا الصمت العميق أثناء
الملاكمة وذلك التصفيق الفاتر بعد انتهائها . ولم أرح
إلى هذا الفتور ، وشق على أن يكون هذا جزاء
تلاميذي . ومن غيري يعرف مبالغ ما تجشموا
واحتملوا وبذلوا من الجهد في سبيل الاستعداد
لهذه الحفلة ؟ . ولا عجب إذا كان فتور المتفرجين
قد أعدهم ، فقد كانوا بحركون أذرعهم يبطء وفي
استرخاء ، وكنت أحرضهم وأستحهم بالإشارة

ذلك بل من أجل ما أراني أفيد من اللذة والسرور
ودنا الموعد الذي تقام فيه الألعاب وكنت قد
أعددت برنامجاً حافلاً ، فسألتني زكية :
« كيف نسيت الملاكمة ؟ »
قلت : « لم أنسها . سيتلاككم أربعة من التلاميذ
- كل اثنين معاً »

قلت : « أظن أن هذه ملاكمة ؟ هذا لعب »
قلت : « هل تريدن ملاكمة جديده بين هؤلاء
الأطفال ؟ »
قلت : « سيفعلون كل ما يقدرون عليه ،
واعتقد أنهم لن يقصروا ولكن هذا لا يكفي . .
يجب أن تكون هناك ملاكمة جديده بين رجلين »
فلم يسمعي إلا أن أسألهما وأنا أضحك : « ومن
أين نحبي بهما بالله ؟ »
قلت : « إذا كان هذا كل ما في الأمر من
صعوبة فدعه لي »

فسألتها كيف تنوي أن تدبر الأمر ؟ فقالت :
إن عمي يمكن أن يقترح على المدرسة أن تسمح بأن
يضم إلى البرنامج فصل في الملاكمة بين اثنين من
الجنود . فاعترضت بأن هذه حفلة مدرسية لالعلاقة
لها بالبوليس وأن الناظر خليف أن يرفض ، فقالت :
« مالك أنت ؟ دع الأمر لي ولن تخسر شيئاً إذا
أبي ناظرك ، فإذا قبل فإن نجاح حفلاتك يكون باهراً .
ألا ترى أنني أريد لك الخير ؟ »

فشكرتها - أعني قبلتها - ومضينا في
الاستعداد . وكان الناظر لفرط اهتمامه بالحفلة قد
أخلى من الدروس فانقطعت لتدريب التلاميذ
وتنظيم الأمر . وكان يضحكني أحياناً أن شيخاً
مهما مثلي ينقاب في شهور بطلا من أبطال الرياضة

فلا يزيدون على الابتسام ، ثم يستأنفون تحريك أيديهم كأنما هم يسبحون في الماء . فلما انتهوا صفقت لهم بشدة ، ولكن الفتور العاصف أخجلني ، فكففت فجأة وهوت يداي إلى جانبي

وكانت الملائكة الجدية بين اثنين من رجال البوليس هي المشهد التالي والأخير في البرنامج . وأحسب أن انتظارها هو مبعث هذا الفتور الذي كان من نصيب التلاميذ ، فما كانت ملائكة هؤلاء إلا أمباً . فظلمات واقفاً في مكاني وراء منصة الملائكة أنتظر أن يجيء صميذة بالتلاميذ ويقدمهما إلى الجمهور ، فقد كان هو الحكم . فجاء صميذة ولكن وحده ، وليس كتنى بأطراف أصابعه فالتفت إليه ، قدعاني أن أنبئه . وكان هناك ستار وراء المنصة وغرفة لتغيير الملابس ، فقال لي وقد أصبحنا بمنزل عن الجمهور : « ما العمل ؟ » فهزئت رأسي مستههماً ، فقال : « إن الجندي الثاني مريض فهو لا يستطيع أن يحضر »

ودخل في هذه اللحظة الجندي الآخر وصدره عار ، وعليه غاية من الشعر ، وقال بصوت عال لا يخلو من السخرية والاعتداد بالنفس : « أين هذا الهرب يا صميذة ؟ »

فلم أرتح إلى منظره البشع ، ولم يحسن وقع لهجته في نفسي ، فنظرت إليه كما ينظر الانسان الى شيء قذر ؛ ثم حوات وجهي عنه فقد دخلت في هذه الساعة زكية ووراءها الناظر

وقال صميذة : « ما العمل ؟ »

وقالت زكية : « ألا يمكن أن تنازله يا سيد ؟ »

فبهت ووقف لسانى في حلقى ، وجف ريقى ، لا من الخوف بل من الدهشة

وقال صميذة : « والله فكرة ! ... أحسن

حل ... بالطبع يمكن ... »

وربت الناظر على كتفى وقال : « برافو ، برافو ! والآن عجولوا »

وهم بالرجوع فاستوقفته وصحت به : « ولكن يا حضرة الناظر هذا مستحيل ؟ .. كيف يمكن ؟ .. » ولكن زكية قاطعتنى وقالت : « بالطبع يمكن . إن صميذة يؤكد أن في وسعك أن تأكله ... لأجل خاطرى ! ... لا تخيب أملى فيك ... قل إنك تقبل »

وابتسمت لى . وكان الجندي الملاكم ينظر إلينا وينتظر ، ويداء في خاصرته ، وعلى وجهه ابتسامة زراية واستخفاف لا نطاق . وأظن أن هذه الابتسامة الثقيلة هي التي دفعتنى الى القبول والرضى لا الابتسامة الحلوة الساحرة التي جادت على بها زكية ، فهزئت رأسي أن نعم وعيني على الجندي

وما أسرع ما خلعت ثيابى وألقى على جسدى صميذة شيئاً كالبرنس ، فما كان لى وعي ، ولا كنت أفكر إلا في الظهور أمام تلاميذى وأمام رؤسائى في الوزارة ، ملاكاً ؛ ولم يكن ما بى خوفاً وإنما كان خجلاً . وكان صميذة يدفعنى ويربت على كتفى . ودخل الجندي مزهواً منتفخاً ودخلت وراءه

مطأطأ الرأس من فرط الاستحياء . وقابلنا الجمهور مقابلة حارة . ثم نهضنا وتصالحنا ، ولكن خصمى زاد على ذلك أن لمس ذقنى بقفازه وابتسم ، فعلا الضحك ، فأحسست أن دى ينلى في عروقى من الغضب ، وهل مما يحتمل أن يجمانى هذا الجلف أضحوكة وعرضة استهزاء ؟ .. واغتذمت فرصة سنحت لى فلكنه بقوة - على أنفه - ولم يكن هذا ذنبى فقد كان أنفه كبيراً يغرى باللكم ؛ وأحسب أن اللكمة كانت عنيفة فقد دار وتطرح ، ثم أقبل

وانطلقت صيحة عظيمة من الجمهور — من
الآعيان ومن التلاميذ جميعاً — ووقف الكل
وراحوا يصفقون بلا ترفق بأيديهم
وأحسب أنى أنا الوحيد الذى لم يكن مسروراً
فى تلك اللحظة

وجاءنى ضابط المدرسة يدعونى إلى مقابلة وكيل
الوزارة فى غرفة الناظر ، وكنت أتوقع شيئاً من
هذا القبيل ، فاجرى فى وهمى قط أن الوزارة ترضى
عن مدرس بلاكم جندياً فى حفلة كبيرة عامة كهذه ؛
ولكنى لم أكّد أبغ الغرفة حتى استغربت أن
أرى زكية داخله أماًى ومعهامى ، فسكنت نفسى
قليلاً لأن هذا يشبه أن يكون اجتمعاً خاصاً لا مقابلة
رسمية . وصرت فى الغرفة ووقفت مطرقاً فوقف
الوكيل ووقف مثله الباقون — مفتش أنجليزى
وأخر مصرى والناظر وعمى — وقال الوكيل :
« إنى أهنتك ... لقد كنت بارعاً جداً »

وصاحفنى المفتش الأنجليزى بعمه بقوة وحرارة
وأثنى على بلغة عربية محطمة . ولم يكن شىء من
هذا مما كنت أتوقع . وخطر لى أن الفضل فى
حسن ما استقبات به لا بد أن يكون لناظرنا الجبرى .
الحر ، فتركتهم جميعاً واندفعت إليه وصاخته شاكرآ
فتأثر الرجل الكريم وقال :

« إنى مسرور وآسف فى الوقت نفسه . لقد
جرّ على نجاحك أنى فقدتك ... أو على الأصح
سأفقدك »

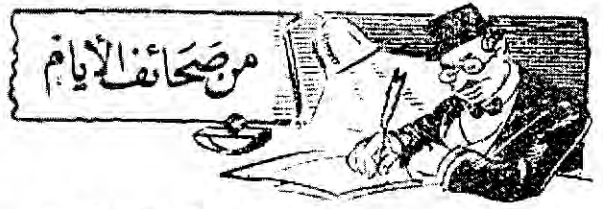
وقال الوكيل : « لاشك أن فقد المدرسة له
سيكون خسارة ، ولكن يعزىك أنه سيكون بفضل
تشجيعك أنفع فى مكان آخر ... نعم لقد رأينا
— أما وجناب المفتش — أن ننتفع بك فى الوزارة

على كالوحش المفترس ، فتذكرت ثناء صميده على
سرعتى وخفة حركتى ، وذهبت أحاوره وأداوره
بخفة وسرعة لم أعهدهما فى نفسى من قبل ، وقد
نفعتنى ذلك فانهى الشوط الأول من غير أن
يصيبنى أذى

وكنت أنتظر أن ألقى من المتفرجين تشجيعاً ،
ولا سيما من تلاميذى ، ولكن الشوط الثانى بدأ
والكل صامت ، وكان خصمى منبطحاً محنقاً ،
لا أدرى لماذا ، فأنهال على كالصخرة ، ولكنى كنت
أسرع مما قدر ، فلم يباغ منى شيئاً . وبظهر أن هذا
زاده سخطاً وغيطاً ، فقد صاح بى بأعلى صوت :
« ألا يمكن أن تقف فى مكان ... ؟ إن المرء يحتاج
الى موتوسيكلى ليلحق بك »

فانفجر المتفرجون ضاحكين . فلم يبق لى عقل
فقد كان ضحكهم على ولا شك . ووقفت وثبت له
فأقبل يريد أن يلاصكنى ، فأنحرفت قليلاً لأتقى
الضربة فراحت فى الهواء ، وفى هذه اللحظة التى
أنحرفت فيها ، سمعت صوتاً يصيح : « عليه ! »
عليه ! . أفتله « وكان وجهى بعمد أن انحرفت قد
صار الى الجمهور فلما رفعت رأسمى رأيت — تحت
عينى — عمى واقفاً يلوح بيديه فى الهواء ويصيح :
« عليه ! . عليه ! . أفتله . »

ولا أدرى إلى هذه الساعة أكان عمى يحضنى أنا
على القتل ، أم كان يحض خصمى على اللواء بى ،
ولكن الذى أدريه أن البقية الباقية من عقلى طارت
وذهبت مع الرياح الأربع . ودرت واستقبلت
خصمى الذى دار مثلى بعمد أن تطرح لما أخطأته
ضربته ، ولصمته تحت ذقنه فارتدى على الأرض
وانحنى صميده عليه وهو بعمد ؛ ثم أقبل على يهنئنى
بالفوز العاجل



يَوْمَئِذٍ نَأْتِيكَ الْإِنْفِ

لِلأَسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ

١٧ أكتوبر . . .

فكرت ملياً في أمر ذلك الخطاب . من ترى يكون مرسله المجهول ؟ الأسلوب ينم عن أن صاحبه أزهرى فسد . هذه الآية القرآنية وهذا التوقيع لا يصدران إلا عن هذا الصنف الذي يستغل علمه القليل وجهل الناس المطبق في الريف فيعيش على تحرير البلاغات المأجورة وبذر الشقاق بين الأسر والأفراد . ولكن في هذا الخطاب على أي حال وقائع تستدعي التحقيق . ولو صح ما جاء فيه من أن زوجة قمر الدولة قتلت خنقاً لخرجنا من الأمر بجناية تمخضت عن جنائية . لايهمنا الآن البحث عن صاحب الخطاب بقدر ما يهمنا التأكد من صحة الاتهام . لا بد إذن من فتح المقبرة واستخراج جثة زوجة المصاب وعرضها على الطبيب الشرعي . وقد اتجه تفكيري كله هذا الاتجاه فلم أشغل ذهني بما ورد من ريم في هذا البلاغ وما يمكن أن يلحقها من شر . ذلك أن كل شيء مترتب على نتيجة فحص الجثة . وكنت قد بادرت فأخطرت الطبيب الشرعي ببرقية ، وقتت بما يلزم من إجراءات لفتح المقبرة ، فعينت عليها الحراس يسهرون الليل بجوارها حتى لا يعثر بها عاث . وأرسالت في طلب « الاتحاد » وكنت قد اتصلت تليفونياً بالمركز عقب قراءة ذلك الخطاب

لأخطر الأمور ، فقيل لي إن الأمور ركب ومضى إلى اجتماع خطير معقود في المديرية برئاسة المدير وحضر إلى للفور معاون يقول :

— سمادتك اطاعت طبعاً على جرائد المساء

— أبدأ

— في البلد أزمة وزارية

فأدركت في الحال سر اجتماع المديرية ، وعلمت أن رجال الإدارة منذ الساعة لن يكون لهم عقل ولا فكر في غير تقسيم هوى الوزارة الجديدة ، حتى يعدوا أنفسهم الميل معها كما مالوا مع غيرها . وهذا الميل يبدو أكثر ما يبدو في التجهم السريع للعمد والأعيان الموالين الوزارة الآفلة ، والابتسام البديع لأنصار الوزارة المقبلة . ولم أبدأ أية ملاحظة للمعاون ، فأنا رجل قضاء لا ينبغي لي الكلام في السياسة ؛ ومهما تغيرت الوزارات والأحزاب فإن القانون هو القانون . والتفت إليه أخيراً وقالت في هدوء :

أظن حضرتك تقوم معنا بدل الأمور

— الظروف الحاضرة تمنعني من ترك المركز .

لكن ملاحظ النقطة موجود هناك في خدمة سمادتك

فتركته ينصرف إلى مركزه ، وأمرت بإعداد السيارة ، وجلست أنتظر الطبيب الشرعي وقد أجاب على برقيةنا بإشارة تليفونية أنه حاضر اليوم . ودخل على عبد المقصود أفندي وأشار بيده إلى « النتيجة » المعلقة بالحائط ، وذكرني بضرورة تفتيش سجن المركز ؛ فالنيابة عليها أن تقوم بهذا التفتيش فجأة مرتين في كل شهر على الأقل . فلم ألتفت إليه وأمرته أن يذكرني فيما بعد ؛ فمضى خطوتين ثم عاد وغمز بعينه :

— فيه إشاعة أن الوزارة الجديدة تألفت وناوية أن تجري انتخابات جديدة — وما له ؟

— غرضي يعني ... قبل سجن المركز ما يزدحم ...

فلم أنبس بكلمة ، وتشاغات بتقليب أوراق القضية التي تقوم من أجلها ؛ ورأى رئيس القلم الجنائي أني لن أجيب فانصرف متردداً متباطئاً . وأدركت من هيئته أنه لم يأت من تلقاء نفسه ؛ فناديت به فرجع ، فقلت له في ابتسامة التخاذل :

— كاتب ضبط المركز كلك في التليفون ؟ فأجاب للفور :

— طبعاً . ودفأت السجن مسددة جاهزة ... ومحضر التفتيش مكتوب . وكل شيء تمام ، ولا باق غير إمضاء سمادتك ... والحكاية كلها قيمة ربع ساعة ونكون انتهينا من مأمورية تفتيش السجن فنظرت إليه مُزراً :

— شيء جميل . تفتيش فجائي مضبوط يا عبد المقصود أفندي ... ؟

فارتبك الرجل قليلاً ثم قال :

— أنا غرضي ... راحة سمادتك من جهة ، وعدم إحراج المركز في الظروف الحاضرة من جهة أخرى ...

— طيب . طيب ...

وأمرت فأقفات باب الموضوع . فقد سمعت نقرأ على باب حجرتي ، وأبصرت من خلفه الطبيب الشرعي بحقيبته الصغيرة يستأذن في الدخول . فنهضت في الحال واتجهت إليه وأدخلته مرحباً . وطلبت له فنجاناً من القهوة . ثم تجاذبنا الحديث في الأحوال العامة . فأخبرني باختصار ما سبق أن علمته من عبد المقصود أفندي من أن الوزارة الجديدة قد تسلمت فعلاً مقاليد الأمر ، وأنها تمديد المدة لانتخابات جديدة . ولم نعلق على هذه الأخبار بشيء . فكلانا يجهل مبول الآخر . وكلانا يخشى أن يظهر رأيه الدفين . وبدأنا لوقتنا الكلام في العمل وفي القضية التي بين أيدينا ، وأخبرت الطبيب بظروفيها في عبارات مريمة . واستقر الرأي على المبادرة بالانتقال إلى المقبرة . فقمنا إلى السيارة وانطلقنا ولم نقف حتى بلغنا مكاناً قصياً في المزارع قد تجمعت فيه تحت ظل نخلتين أو ثلاث بضع مقابر من الطين والآجر قد علمتها « شواهد » طويلة سمراء كأنها رؤوس المفاريت فنزلنا . وهرع لاستقبالنا الحراس . هبوا فجأة من مرافدهم لمرآنا وخرجوا علينا ، بعضهم يهبط من أعلى « مرتبة » قد وضعت فوق المقبرة كما يوضع الهودج فوق النافذة ، وبعضهم يشب من على حصير فرش بين يدي هذه المقبرة كأنهم قردة تشب من حجر أمها ؛ وسألت عن حضرة ملاحظ النقطة فأشاروا إلى الطريق الزراعي ، فرأيت فتى في ملابسه العسكرية يقبل

بجثة أخرى ما كاد يفحصها الطبيب حتى وجدها هي كذلك جثة رجل . وهكذا ظل يمرض علينا الجثث التي وقعت عليها يده فاذا اكملها لرجال . فصاح اللحاد مغيظاً :

— أmaal النسوان راحت فين يا رجاله ؟

فقال له الطبيب في هدوء :

حضرتك بالاختصار غلطت في المقبرة

ثم نظر إلى المقبرة التي بجوارها وقال له :

— افتح دى

فذهب اللحاد بأدواته حيث أشار إليه الطبيب

بينما أنزل الحراس « متاعهم » من فوق المقبرة

الأولى وهم يتهامسون :

— بقى كئنا را كبين غلط !

وفتحت المقبرة الثانية . وما كاد اللحاد يزحف

إليها ويختفي فيها حتى ظهر الملاحظ عائداً وخلفه

امرأة تخفى وجهها بطرف طرحتها السوداء . وترجع

عقيرتها مولولة :

— يا للى كنت منورة الحارة !

فسد الملاحظ فيها في الحال منتهراً :

— اخرسى يا ولية !

واقترب الطبيب الشرعى من المرأة وحادثها فلم

منها أنها كانت جارة للمتوفاة وأنها حضرت جهازها

— اسمى يا ستى . الميتة كمنوها قدامك ؟

فتنهبت المرأة وقالت :

— قداى يا سيدى ، وبقيت بعيد عنك أطم

وأرفع بانصوت

— المهم عندنا مش اللطم ، كفنوها في كم

« درج »

— في عين العدو ثلاثة « أدراج » : درج

مرمر ودرج كزميز ودرج حرير أخضر ...

متبختراً على حصانه الأنهب . ولم تمض لحظة حتى

بدأنا العمل ؛ فأمرنا اللحاد بفتح المقبرة فأعمل في

الحال فأسه ومموله في البناء الذى يخفى المدخل .

وسألنى الطبيب الشرعى عما إذا كنا - تدعينا أحداً

من أهل المتوفاة يستطيع أن يتعرف على الجثة وكفنها ؛

فأجبت أنه لا نعرف المتوفاة غير أخت قد هربت

واختفت . فاقترح إيفاد الملاحظ إلى القرية يحضر

لنا امرأة من الجيران ممن حضروا غسلها أو دفنها .

فقام الملاحظ للفور لما انتدب له . وأمرنا اللحاد

في الدق والمهدم حتى جرح صدر المقبرة جرحاً بالغاً

وقام عنها وهو يقول :

— الباب من غير مؤاخذه من ورا ...

وتناول أدواته وذهب إلى الناحية الأخرى

وجعل يوسمها ضرباً وطرقاً . فصاح به الطبيب

الشرعى :

— هل هي يا رجل مقبرة توت عنخ آمون ؟

تقاط في المدخل وأنت لحاد الناحية !

— أصله يا حضرة الدكتور مضى عليها زمن

مقفولة

وضرب ضربتين انفتح تحتهم المدخل . وزحف

الرجل على يديه وقدميه إلى داخل المقبرة وخرج

يجذب شيئاً ملفوفاً في « قماش » لا لون له من القدم

تسكاد أطرافه تنفتت في أصابعه . ووضع تحت

أنظارنا وهو يقول :

— شوفوا هي دى « بلا قافية » الحرمة ؟

فكشف الطبيب الشرعى عن تلك العظام

النخرة ونظر فيها ثم قال للحاد :

— ارجع بها يا حمار . دى جثة رجل

— راجل ؟

واختفى اللحاد بالجثة في قلب المقبرة وعاد فظهر

التي لها في حياتنا البشرية كل الخطر لو نزعنا عنها ذلك « الرمز » أبقى منها أمام أبصارنا الالهية غير المكثرثة غير جسم مادي حجر أو عظم لا يساوى شيئاً ولا يعنى شيئاً . ما مصير البشرية وما قيمتها لو ذهب عنها « الرمز » ... « الرمز » هو في ذاته كائن لا وجود له . هو لا شيء ، وهو مع ذلك كل شيء في حياتنا الآدمية . هذا « اللاشيء » الذي نشيد عليه حياتنا هو كل ما نملك من سمو نختل به ونتماز على غيرنا من المخلوقات . هنا كل الفرق بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا

وقطع الطبيب سلسلة تفكيرى بمقص طي في يده ذات القفاز الجلودى الشفاف يفحص به العظام قائلا :

— امرأة من غير شك

ومضى في عمله وهو يقول :

— الأضلاع سليمة ، والجحمة : الطاسة

سليمة ، والمظم اللامى ... وهنا نظرت اليه في انتباه . فالمظم اللامى في العنق هو الدليل الناطق على حدوث الجريمة . فان كسره معناه أن الخلق قد وقع . وإن كل ما يهمنا في الحقيقة من استخراج الجثة والكشف عنها هو فحص المظم اللامى ، والتحقق من سلامته . ولم يمضى الطبيب حتى أسأله وصاح وهو يربى هذا المظم بين أصابعه :

— مكسور

هذه الكلمة كانت كافية لتحديد موقفى من الأمر . ان ما جاء في البلاغ المجهول المصدر حقيقى إذن . وماذا أنتظر بعد ذلك . وصحت في الطبيب : — انتهينا . وعزمت على العودة مسرعا للبدء في تدبير ما ينبغى للوصول الى معرفة سر هذه القضية الجديدة ، فهى من دون رب مفتاح الأولى

وخرج اللحد وقتئذ يجذب من داخل القبرة جثة فخص الطبيب كفنها وقد ذهب لونه بفعل الزمن إلا بقية اخضرار خفيف في أطرافه ينم عن حقيقة لونه الغابر ، فأمر من الفور بحمل الجثة ووضعها على « لوحين » من الخشب نصباً سريعاً على هيئة مشرحة تحت ظلال شجرة من السنط ، وطاب إمداد الحاضرين فرفع الملاحظ عصاه الخيزران الرفيعة في يده وفرق الناس صائحاً :

— بعيد . بعيد ...

وكشف الطبيب الكفن في احتياط . وما كاد ذلك الهيكل العظمى المسجى يظهر للعيان حتى سمعت خافى همسا وهممة ، فاستدرت فأبصرت سائق السيارة مختفياً خلف جذع الشجرة صاحب الوجه بارز العينين يشاهد هذا النظر ولا يملك نفسه : — لا حول ولا قوة إلا بالله ! إنا لله وإنا اليه راجعون !

ولحه الطبيب فأنهره وأمره بالابتعاد . وصحت أما كذلك في السائق صيحة انصرف بهدها الى سيارته وقبع فيها . غير أنى تأملت قابلاً أمر هذا السائق ... ما الذى روعه ؟ أهو منظر العظام في ذاتها ، أم فكرة الموت المثلة فيها ، أم المصير الآدمى وقد رآه أمامه رأى العين ؟ ولماذا لم يعد منظر الجثث أو العظام يؤثر فى مثلى وفى مثل الطبيب ، وحتى فى مثل اللحد أو الحراس هذا التأثير ؟ يخيل إلى أن هذه الجثث والعظام قد فقدت لدينا ما فيها من رموز . فهى لا تمدو فى نظرنا قطع الأخشاب وعيدان الحطب وقوالب الطين والآجر . إنها أشياء تتداولها أيدينا فى عملنا اليومى . لقد انفصل عنها ذلك « الرمز » الذى هو كل قوتها . نعم . وماذا يبقى من كل تلك الأشياء العظيمة المقدسة

وسألته عن الخبر فأجابني انه قد صدر اليوم امر برفض العمدة الحالي وتعيين آخر مكانه من الأسرة المنافسة في القرية . ففهمنا كل شيء ، ومال على الطبيب يقول ضاحكا :

— يظهر أن تليفون الحكومة عند العمدة في مقام الصولجان

— هذا صحيح فيما أرى ، انه مظهر السلطة والحكم وأداة الاتصال بالحكومة ، وإن خلمه من دار العمدة « المخلوع » إنما هو « رمز » لزال السلطة ، وأن هذا العويل المرتفع من « دوار » العمدة القديم ، وهذا البكاء الذي يشيع به التليفون الخارج من بيته لدليل على فداحة المصيبة ؛ وهذه المصيبة ككل مصيبة لها وجهها الآخر الياسم بطل على ناحية أخرى ؛ وإن دار العمدة الجديد الذي يستقبل التليفون الداخل عليه بالزغاريد والدفوف لدليل أيضا على مياخ السعادة والهناء . هنا « الرمز » كذلك في شكل « تليفون » من الصاب والخشب وقد لعب دوراً مهماً على مسرح هذه القرية

الوادة

وانطلقت بنا السيارة والطبيب صامت في بعض الطريق . وأخيراً التفت إلى وقال :

— يظهر أن العمدة الجديد من محاسب الوزارة الجديدة

فقلت له : إن هذه القرية ككل قرية اليوم في مصر بها عائلتان قويتان أو أكثر تتنافس العمدة وكل منهما ينتمي إلى حزب من الأحزاب التي تتنازع الحكم . ولماذا تريد أن يكون الحال في القرية

غيره في الدولة ؟ وهل القرية إلا مصغر الدولة ؟

(يتبع)
توفيق الحكيم

وفرغ الطبيب الشرعي من أمر الجثة وأعادها للحادد أمامنا إلى مقرها وسد عليها كما كانت . وأنا صامت في مكاني أفكر فيمن يكون الخائق لهذه المرأة . أهو زوجها المصاب ؟ وما الذي حمله على ذلك ؟ وأختها ريم ما شأنها في الأمر ؟ أتراها تعلم بهذه الجريمة ؟ وأين ريم الآن ؟ إن وجودها اليوم في التحقيق ذو أهمية كبرى . ولكن كيف نعلم عليها ؟ إن الشيخ عصفور يعلم مقرها ، أو على الأقل يستطيع أن يعاوننا في البحث عنها . إذن فلنجعل الشيخ عصفور مبدأ لخط السير الجديد . فلأقنمه أنا بوسائل بعيداً عن طرق الإدارة المنيقة . إن مثله قد يؤخذ بالحيلة والهدوء . ترى لو أفهمته مثلاً أن في إمكاني أن أزوجهما منه ... وأعجبني الفكرة وعزمت على تنفيذها . وركبنا السيارة عائدين . ومررنا في طريقنا بالقرية ، فاذا أصوات حزن وولولة نساء ترتفع من « دوار » العمدة . فقلت وأنا أقف السائق بإشارة :

— العمدة مات ؟

وأطلت من نافذة السيارة ، فاذا أنا أمام منظر لم أفهمه أول الأمر . رأيت شيخ الخفر ووكيله وبعض الخفراء يحملون شيئاً في أيديهم ومن حولهم جموع الرجال والنساء والصبيان يهللون ويكبرون والنساء يزغردن كما يفعلان في الأفراح وفي أيديهن الدفوف يضربن عليها . وتأملت جيداً ما يحملونه وتأملت معي الطبيب الشرعي دهشاً فرأينا آلة تليفون حكومية من طراز تليفونات المراكز . فصاح الطبيب في عجب :

— التليفون له زفة كأنها زفة عمروسة

ومر بقربنا خفير نظاي فأشرت إليه فاقترب



— لعلني أستطيع أن أساعدك

— لكي تفعل لا بد أن تحمي الموتى أو تقذف في نايهم ... (لورد بيرون)

القصر ، فأمرني أن أسهر على صغيرته ، وأن أخصمها
بالعناية ، وأن أرفق بها .. وبدأ على الغرور حين
ترامى لي أنني أصبحت أما ، وهذه دورثيا ابنتي
وأختي في وقت معاً . إنني أحبها ... أحبها وأعطف

عليها ، وأطرب حين أراها
في جمالها ورقمها وطفولتها
تثب هنا وهناك

وشاء أبي ألا نبرح
مقاطعة روكسلي في هذه
السن الباكورة ؛ غير أنه
استطاع بزياراته المتتالية أن
يرى عن كثب ما نحن فيه
من هناة وسرور ، ومن
تألف ووافق . لقد اطمأن
إلى ما رأي فزادت ثقته بي
وسرّه ما أحببوا أختي دورثيا

من عطف وحنان ، فأقامني عليها حارساً أميناً دون
مهربتنا المجوز مسر شيرلي التي بذرت في نفسي
غراس الكبرياء والقطرسة حين أدخلت في روعي
أنني الكبيرة ، وأنني التي سأرث هذا الملك
الكبير من بعد ... ثم هي تنملقني في خضوع ،
وتترضاني في ذلة



المحدث من أصل انجليزي عريق في الجدد ،
ونشأت كما ينشأ أبناء الأشراف لا يسمعون إلا
كلمات المديح وعبارات التملق ؛ فشبتت مني
كبريائي ، وراحت تمن عن نفسها في حركاتي ،

وفي رنات صوتي ، وفي
نظراتي ، وفي ... غير أن
كل هذا قد استحال في
نفسى إلى نوع من اليأس
والقنوط منذ هبطنا هذه
البقعة الخالية النائية ، ومنذ
بدت الحياة في عيني جديداً
مقفرة

وماتت أمي عن طفلة في
العاشرة ، وعن أختي دورثيا
في الثالثة ، وهي ما تزال تبسم
للحياة في سداجة ورقية ...

وماتت لتكون بين يدي أبي اللورد هيرت أوف
روكسلي ... لقد كان شقيقاً رحماً غير أنه ما كان
ليستقر إلى جانبنا ليرعانا ويتولى أمرنا ؛ فهو سياسي
ضليع ، وقف إلى جانب الملك جيمس الثاني ودافع
عن مبادئه ؛ وهو يدق قوة فعالة في البلاط ... وأراد
أبي أن ينطلق إلى حياته في المدينة وإلى عمله في

لست أذكر كيف تعرفت إلى السير وطوت
ورسلى ولا متى ... لقد جذبني إليه ما رأيت فيه
من وداعة وهدوء ، وما سمعت من حديثه وقد خلا
من كلمات التصنع والخداع . لقد علقت به واطمأنت
إليه ، غير أنه ما لبث أن غادر القصر ليكون مدير
أملاك الملكة . وحين انطلق إلى عمله تواعدنا على أن
نتلاقى في حفلات القصر وهي كثيرة . لقد نأى ..
نأى وألسنة الثناء والمدح ما تبرح تطن في أذني
طينيناً لا يكاد يباع شغاف قلبي ، ولا يستطيع أن
يحوله عن هذا الرجل . وتكاد تنسى أول عتبة في
حياتي حين بدالى أنني قد علقت بهذا الرجل ولا
أدرى ماذا يحمل لي قلبه ؛ وأنا فتاة لا أستسلم لمن
يطمع في أن يبلبني ، ولكن ألى ثمين غال . ورحلت
أنشر شياكي في خفاء وتستتر خشية أن تشعر هذه
القلوب التي طعمتها بالكبرياء وآلمتها بالثأبي ، وأنا
أراها تتقصصني في غير مال ولا فتور لتجد ثغرة
تنفذ منها إلى ما يسوءني ، وكلمة اللورد لوفيل
تستحثني إلى أمر ...

لقد كانت رنات صوت السير ورسلى موسيقية
شجية جذابة تركت في نفسي أثراً لا يمحي .
والحق أن قلبي قد خفق له مرات ومرات ،
وأحسست كأن حبي له يتدفق في قلبي عاصفاً قويا ،
ولكنه هو . . . ماذا رأى في ؟

وأخذ الشك يضطرم في قلبي . . . قلبي الملهف
المشتاق ، والآمل الحلو يخفف بهض ما أقاسي .
لم يقل لي مرة إنه يحبني ، ولكنه كان لا يطمئن إلى
سواي ، ولا يرافق غيري ، ولا يرقص إلا معي ؛
وفي ليالي الصيف الصافية يطلب هو إلى أن نتلاقى
معاً إلى شاطئ نهر التاميز لنفر من جلبة القصر
وضوضائه ، فأسير المويبي إلى جانبه في هدأة الليل

وكانت دورثيا - باديء ذي بدء - جبانة
ضعيفة ضاوية ، تتسكع في هدوء وتضطرب في
سيرها ؛ ثم هي لا تستطيع أن تسكفكف عبراتها
المتدفقة إذا هي أحست الشدة أو لمست القسوة ؛ غير
أن ابتسامتها المذبة ما كانت لتفارق ثغرها الحلو ؛
وحين تداعب الذمات الرفيقة شعرها الذهبي
السهب ، يتألق من بين ثناياه وجهه واضح كأنه طلعة
البدر في الليلة الصافية ، ويكشف عن عيني
جذابتين تنبعث منهما أشعة آمرة . حقاً ، لقد
كانت دورثيا جميلة فائقة جذابة كأنها حوراء

وأرادني أبي - وأما في الثامنة عشرة - على
أن أبدو بين فتيات البلاط على رغم ما كان فيه من
اضطراب وتفاقل ؛ فحذبتني من وحدتي في روكتلي
إلى هوايت هول المائجة الساطعة المناقة . لم تنزل
قدماي ، ولم يسيطر على الخور والضعف لما رأيت
في القصر ، فلقد كان في قلبي من الغرور ما خيل إلى
أنني فتاة القصر جمالاً وجاذبية ورقة حديث ...

والنفث حولي جماعة يتقربون إلى وينثرون على
مسمي عبارات المدح والاطراء ، وكأنهم رأوا في
ما رأيت في نفسي من قبل ؛ غير أنني كنت أستثقل
ظلمهم وأحدهم بنظرات فيها الازدراء والاحتقار
وأتنعم عليهم في جفاء . . . وجمعت ترفدي أنا - أنا
الآنسة ميراندا هربت - إلى أعلى فأصبح حديث
المجالس ، ومادة الصحف ، ومنية القلوب ، وبهجة
القصر ، وقذى في عيون النساء ؛ وصرت معبودة
يسجد عند قدمي المحب الذي أبغضه وأمقته وأتوى
عليه ؛ حتى أن اللورد (لوفيل) قال لي في غضب وقد
دفعته عني في جفاء وغلاظة : « ميراندا ، إن هذا
الاحتقار الذي تنثرينه الآن هنا وهناك سينتقم منك
بعد حين ! » فابتسمت ابتسامة السخرية لما سمعت

وسكونه ، أنصت إلى حديثه العذب وكلماته تنطق
عن بعض ما يستشعر من لذة وسعادة

وشغلت أبي أمور القصر فما استطاع أن يفتح
عينيه على ما يتنازعني من هوى ، فهو ما يفتأ يحدث
السير ورسلي عن دسائس يحكيهما جماعة البروتستنت
لتمصف بالملك جيمس ، أو عن بعض ما تنثره
الملكة حوالها من مقت وكراعية . أما أنا فقد
سيطرت على العاطفة فسلبتني مما يدور حولي ،
وعزب عني أنني سأكون ضحية حين يهب الاعصار
فيألف كل أتباع الملك وأحبابه

وتردد أبي حيناً في أن يتبع سيده إلى منفاه ،
ثم انطلق على أثره ، وكنت طروباً مرحة حين
خيل إلى أنني سأرافق أبي والسير ورسلي إلى
سانت جرمان ، ولكن أبي أرادني على أن ارتد
إلى روكللي لأقوم على ابنته دورثيا

رجعت لأرى دورثيا ما تزال في ثياب الطفولة
ومرحها . ولأستشعر في نفسي شيئاً غير الذي كان
فقلبي يخفق ، وخواطري تضطرب ، وأنا كأنا عصا
ساحر لمستنى لترك في أحسن ما في المرأة وتزع
عني بعض ما كان من كبريائي وغطرستي ، وتحيل
نظراتي وكلماتي وحركاتي إلى أشياء أخرى منها الرقة
والظرف . يا عجبا ! لقد أحببت ... أحببت بقلب
فيه التواضع والانسانية والشك في وقت ممّا !

ليته نشر على عيني بعض ما في قلبه إن خيراً
وإن شراً ، فأعيش بالأمل الحلو أو باليأس القاتل !
ليته نزع عني الاضطراب والقلق بكلمات ! لا إنه
لا يحبني ، وإنما كان يحبوني الصداقة والمطف
فحسب ! سينساني أو لعله نسيني ، فهذه الأيام تمر
ولم أظفر منه بخطاب يحدثني حديث قلبه . ها هي
ذى الأيام تمر وصوته العذب ما يزال يرن في مسمعي

وشخصه الجميل ما يهرج يضطرب في خيالي .
إنني أحبه ... لقد امتهنت نفسي حين
أحببت من لا يحبني ... امتهنت نفسي ، غير أنني
ما أزال أحبه

أين من أستطيع أن أفض أمامه أغلاق قلبي ؟
إن مريتنا عجوز ثمرارة لا تكتم سرّاً ؛ ودورثيا
ما تزال طفلة لا تفهم نجواي ، وأنا لا أريد أن
أجعل لها في طفولتها مشكلة بذكر الحب ...

وتصرمت أعوام وأعوام وأبي ما يزال في منفاه ،
وأنا أجهد نفسي في المحافظة على ماله ، وفي السهر
على أختي دورثيا ؛ وشبابي يذوى رويداً رويداً ،
وجالي يحبو قليلاً قليلاً ؛ وأنا في شغل عن ذلك بما
في قلبي من حب للسير ورسلي ، وبما آخذ به نفسي
من عادات وطبائع رضيها هو واطمأن إليها

ولبثنا زماناً في روكللي لا نرحما ؛ غير أن أحد
أقارب أمي هياً لنا فرصة ، فاستطعت أن أرافقه أنا
وأختي إلى لندن ، ثم راح هو يصحبها إلى هناك
الفينة بعد الفينة ، لأعيش وحدي زمناً أحدث
نفسي حديث الأمل في الرجل الذي أحببت

وبينما أنا أجلس إلى نفسي في ليلة من ليالي
الربيع ، رأيت رجلاً غريباً يدلف إلى الحديقة ،
فنظرت ... نظرت فاذا ورسلي ... ورسلي نفسه
إلى جانبي ، فراح قلبي يدق دقات عنيفة كأنه يريد
أن يوقظ ما نام فيه . لقد جاء ... جاء وفي يده
خطاب من أبي إلى مسز شيرلي يقول فيه « وأرجو
أن ينال السير ورسلي كل ما يصبو إليه من العناية
والاحترام بينكم لأنه ليس ضيفي فحسب ، بل هو
سيصبح - بعد حين - زوج إحدى ابنتي .. »
ما أسمعني ، ما أسمعني ! هذا خطاب أبي ، وهذا

ووجدت عذراً ، فانطلقت الى حجرتي ...
الى مرآتي ، وقلبي يتنزي حقدًا والماء ، وبلى ،
وبلى ! هذه أول مرة أرى فيها حقيقة أمرى ؛ لقد
رأيت ، والاضطراب يكاد يعصف بى ، والهم يوشك
أن يفتك بقلبي ؛ رأيت أن الأيام والأشئ قد مسحاً
كثيراً من جمالى وجاذبتى ؛ وارتد تاريخى يحمل
فى أضمافه عبرات وعبرات سكبتها فى سبيله هو ...
أيام كنا مفترقين ، ورأيت شفتى وقد نزع عنهما
طول انتظارهما للشفتين الآخرين ما كان عليهما من
رونق ومن حمرة . وتبلبلت ، وسمعت صوتاً كأنه
منبعث من أعماق الغيب يقول : « سيطلبك
يا ميراندا ... إنه سيطلبك ! » ولكن كيف ... ؟
وأما لا أستطيع أن أسترده أيام الشباب وبهجة
الجمال ! ليت ... ليت الأيام التى سلبتني ما سلبت
من جمال تسلبني من حياتي فأستريح ... لقد
كادت الأفكار المضطربة تقتلني ، غير أن ورسلى
ودورثيا انتزعاني مما كنت فيه

وبدا لى أن ورسلى راح يباعد بينه وبينى ليصل
بينه وبين التى أحب ، فلمست الفتور فى حديثه ،
وفى نظراته ، وفى ... ورأيت أملى الذهبى بتلاشى
رويداً رويداً ؛ فهو يحدثها فى رقة وشغف ؛ وهو
ينظر إليها فى تفتت وانكسار . وتراعى إلى أن
دورثيا تبادلها حباً بحب وغراماً بغرام ، فأحسست
الصفعة القاضية تقضقض عظامى ، ثم لا ترسانى
إلا واهنة يائسة . وما كان لى أن أحذرهما ، أو أن
أهتمهما بالحياة . وكيف ... كيف أفعل وهى توفن
بأنه حبيبها وأنا لم أكنس لها عما يضطرب فى قلبى
لا ، لا ... ان أفعل . سألقى بنفسى فى قرار الخيبة
والياس ، وأدفن فى فابي أملا كان ثم انطوى ليسعدا

خطيبى وحبيبى الى جانبي ! أى سعادة ! وأى هناءة !
لقد محت هذه الساعة الجميلة سيئات الماضى ،
ومسحت سنوات كثيرة انصب على فيها اليأس
والألم انصباباً

ورأى السير ورسلى ما رسمته الأيام على صفحة
وجهى ، فراءه ما رأى ، وخيل إلى أنه يلحظنى
بشيء من العطف والشفقة والأسف حين بداله
أنه هو سر هذا التغيير . لقد نزع عني أفكارى
المضطربة ، وخواطرى المتضاربة رويدا رويدا ،
وكنت أجلس اليه فى كن فى حدائق روكللى
أستمع الى حديثه عن النفسى و ... ويستمع هو الى
حديثى عن عملى فى روكللى ، وعن رأيى فى
تنشئة أختى دورثيا تنشئة طيبة ، ثم عن رغبتى الملحة
فى رؤية أبى ، وهو يعرف أنه سيمود قريباً

وجاست إليه مرة فى الردهة ، وقد نشر
الليل علينا سجفه ، وأرسل الصيف نسائم الرقيقة
تبث فى نفسينا النشاط واللذة ؛ جاست إليه
يحدثني وأحدثه ، وأبسم له ويبسم لى ، وبين يديّ
عود رحت أداعبه فتنبث منه أنات قلبى العاشق
وسيطرت علينا النشوة فما جذبنا منها إلا دورثيا
حين اندفعت إلينا - وقد هزها الطرب - وهى
ترسل صوتها الشجى بأغنية كنت قد علمتها إياها
وقد تجأت مفاتها وانحمة خلاصة آسرة ... وبدأت
على وجه ورسلى سمات الدهشة والسرور ، وطربت
- بادى الأمر - لما رأيت ؛ ثم رأيت وقد تعاق
بها بصره فما بطرف ولا يتحول ، وفى نظره أثر
الهوى والرغبة ، وتراعى لى كأن هوة سحيفة تنفرج
تحت قدمى ؛ وبدأ لى مستقبلي مسطوراً بحروف
من نار

يا شقاوتي ؟ ويا لعنسى ! لقد أصغحت إلى نداء
شيطاني فتخطيت إنسانيتي ، وبأغت المدى في
القسوة والفضاعة حين أوثقت يديها وقيدت رجلها
ووقفت بازائها أحدهما بنظرات فيها التشفي
والانتقام ... ولكن صوتاً أجش فيه القسوة
والغضب ناداني من خافي ، إنه هو ... هو صوت
أبي ؛ والتفت مذعورة ، فإذا هو ... هو أبي على
قيد خطوة مني

لقد غاظه ما رأى فهدم على بكاءات لذاعة
مريرة ، وهو يقول : لماذا ، لماذا ؟ وبدأت عليه
الشفقة فتناثرت عبراته وهو يستل خنجره ليقطع
الحبل ، وأختي المسكينة تضطرب وتجهش .
وبدأت - بمد إذ فقدت حنان أبي وعطفه -
أنني أصبحت وحيدة لا أجد من يشفق على ،
فيئست مرة أخرى . وراح الشيطان يرفه عني ،
وينفث في لساني عبارات فيها الشر والدم ...
وأرسلها على لساني وأنا هادئة كأنني لا أفعل أمراً
إذاً فقلت :

« لقد أبست دورثيا ثياب العار والحق حين
انطلقت تبادل ورسل غراماً دينياً وحباً فاحشاً »
لقد تار أبي لما سمع ... تار كأنه السبع يهاك
القرم وعلى خطوتين منه فريسته ، وغلى في دمه
شرف أجيال عدة لم يثلم ولم يدنس ، وفي يده خنجره
بضطرب ... لقد قذف به ... قذف بالخنجر في
قلب أختي ... أختي دورثيا البريئة ! وتفجر الدم
من قلبها الطاهر ومن كل نقطة منه تتصاعد اللعنات
فلا تنصب إلا على رأسي

وبلى ، وبلى ! لقد جنيت ، ولكن ماذا
أفدت ؟ ماذا أفدت ؟
لامل محمود صبيب

مما . ولكن كيف ؟ لا أستطيع أن أفعل ...
وتنازعني عوامل جديدة وسوس بها الشيطان ليدفع
قائي - وقد استقر فيه الألم والآسى - يدفعه
ليصنع حادثة مروعة ...

واستطاع ورسل أن يرى ما يصطارع في نفس
فطار من روكل ... طار في صفار وضمة ،
لاستشعر لذع الخيبة وصرارة اليأس . لقد كنت
أستطيع أن آخذ نفسي بالصبر ؛ وأن أرغمها على
النسيان لو أنه ظل إلى جانب دورثيا يرعاها ويحفظها ،
غير أنه ألقى بها إلى ليمطيني فرصة الانتقام ... طار
وما ظننت أنه انطلق لينشر قلبه على عيني أبي
بعد إذ حدثها حديث الزواج ، وما كان حديثه
عيباً . لقد قصت على قصتها في سذاجة وصرافة
وسلامة قلب ، ثم قالت إنه حبيبها ورجلها وخطيبها ،
يا لله ! لقد كانت قصتها كية على قائي أفزعته لتبذر
فيه روح الشر والحسد

وجاءت إليها صكوك الهوى من خطابات وصور
وهدايا ... جاءت لتنفث في الحقد فيجور ألكا
وحسرة . لقد انطبع في ذهني كل ما قرأت وما
رأيت ... انطبع في ذهني ليتسمر في قائي وأمام
عيني شبابي الضائع وجمالي الداوي ، فشاع الظلام
في نفسي ورائت على نفسي عوامل لا أدري ما هي ،
غير أنني لمست الشر في أضماها ، فرحت أدعو الله
أن ينقذني ... وشاء القدر أن أعتمر في هذه الحماة
فتارت في نزوات البشرية الشريرة ، فانطلقت إلى
أختي أقسو عليها ، وأغلظ لها في القول ، وأضربها
لغير ما سبب ، وأحبسها في حجرة مظلمة وهي
ما اقترفت ذنباً ؛ وأممت في إبدائها لأشعرها
بعض ما أقاسى في سبيله ... في سبيله هو



ربة الأمر وتعذيب الجنود ،
أما الأسيرة فقد تضعض جلاها حين سيقّت
إلى المحاكمة ، وكانت تعلم أنها محاكمة صورية
سيعقبها حتماً الحكم بالاعدام . . .

وجيء بها في أسماها نصف عارية ، وأخذت
تنظر في شيء من الحيرة والذهول الى القاعد
الوثيرة النثورة هنا وهناك ؛ ولفجها دفء الوقت ،
فاندفع الدم حاراً في جسدها فبدت عذراء الصين في
نوبها البالي كدمية لأمهر فنان

كان الجنرال شو كيكلي ياباني يقدس وطنه
ويعبد امبراطوره ، ولذلك كبح جماح عاطفته لما اهتز
كيانه لمراى الفتاة وحول نظره عنها ، فرجع به
النظر كأن جماها لا ينتهى فما ينتهى الاعجاب بها .
وسألها في خشونة عن علة وجودها في ساحة القتال
وتكلمت نسي نانا فكانت كلماتها الموسيقية
تستقر في قلبه ، قالت إنها كانت الى جانب شقيق
لها تخفف عنه وبيلات الحرب ...

وطفت على رأس الجنرال شنج شو أقسى قواد
اليابان وأصلهم عودا زوبعة نفسية هائلة ، وعجب
لنفسه إذ توقظ فيه فتاة الصين عاطفة الحب الذي

المدافع تصم الآذان في جنوب منشوريا ،
وجنود اليابان تكسح الأراضي الصينية بقيادة
الجنرال الشاب شنج شو ، وزحف الظلام وهذا
الليل إلا من أصوات بضعة مدافع كانت ترسل
قذائفها بين الحين والحين . وأوى الجنرال شو إلى
مخدعه يسترق إغفاءة الفجر ، وفي الصباح دخل
إليه مستشاره الملازم تسنغ ، قال :

— كثر عدد الأسرى الصينيين يا سيدي
الجنرال ، وقلت المؤن فأضحي حالهم يفتت الأكباد
وتحرك الجنرال الشاب في مقعده قليلاً ونظر
إلى نافذة تطل على الميدان وارتسمت على وجهه
علامات الاشفاق لما رأى فعل العرى والجوع
بأسراء ، وأخذت أصابعه تعبت في شارب الصغير
بحركة آلية ، وقال بهدوء :

— اقتلوهم جميعاً رمياً بالرصاص

— نسيت أن أقول إن بينهم فتاة وجدت
بالخنادق الصينية أمس عند استيلائنا عليها ، وكانت
فاقة الوعي من شظية قنبلة أصابت ساقيها

— أjasوسة هي ؟

— أظن ذلك

ووقف الأمرى يرحبون بالموت ينتشلهم من

ومرت أيام كان كلما جن الليل جلس إليها ساعة
يحدثها في كل شيء إلا غرامه

ما كانت نانا تشعر بالحب للجنرال ...
وإذ أحست بالفاق ذات ليلة لغيابه عجبت
لنفسها من أمرها ومرت ساعات وهي ترقب وقع
أقدامه وسهبت حتى مضى أكثر الليل ونجيات
نظراته الطافحة حباً وعطفه الجميل ، فأحست بقلها
الناثر ياتف بخياله ويعترف بولمه ...

ومضى النهار أقبح من ليل داج مخيف
وأغارت أسراب الطيارات الصينية على القلعة
تحاول نسفها

وجزعت نانا إذ تموت قبلما ترى الرجل الذي
توهجت للقائه ، وتساقطت القنابل على القلعة كالطار
النهمر حتى إذا انتهت الغارة دخل عليها ضابطان
من سلاح الطيران الياباني وخرجا بها إلى طائرة في
سفع الجبل وفي دقائق كانت الطائرة تنهب بهم الجو
إلى الميدان الشمالي لتدلى نانا بشهادتها في قضية اتهام
الجنرال شنيج شو بالخيانة العظمى

ودخلت نانا إلى المسكان الذي يحاكم فيه الجنرال
وتقطعت أوصالها لما رأت نحوه وشجوبه والتقت
عينها ، فرأت صدره يعلو ويهبط . ها هي عيناه
تسيمان لها

من لها بكلمة عطف يلفظها فنه ليرتوى بها
قلها الظالمى ؟

وقطع عليها خيالاتها دخول أعضاء المجلس
المسكرى ونظرت الى رئيسه الأشيب وقد بدت
في قسبات وجهه دلائل الغلظة والهدوء
وطالب الرئيس من الجنرال أن يقسم بشرفه
المسكرى ليقول الحق فأقسم

لم يشعر به من قبل وعبثا حاول أن يستجمع
شئنا حواسه ، وراعه بريق عينيها الجليتين ترقبان
ما ستفزع عنه شفتاه

كان يرى في إعدامها فناءه ، وفي الابقاء عليها
خيانة لوطنه وامبراطوره
وكان يابانيا فأنكر عاطفته ونطق بالاعدام

وسيقت تسمى نانا إلى قبو قلعة مجاورة في انتظار
تنفيذ الحكم

ودخل الجنرال الشاب حجرتة محطم القاب
ممزق الأحشاء وما انتصف الليل حتى شعر بشوق
إليها كالجنون ..

ولم يمأ بدهوة جنوده وحراسها لما قام يدفعه
قلبه إلى فانتته

وذعرت الفتاة لراءه ولكن روحه قفزت إلى
عينيها تنطقان بغرامه العاصف فاطمأنت إليه . . .

ونظر إلى فانتته المزينة تعبت السكابة بنغرة
شبابها وإلى جفنها الرطب كأنما علق به أثر من دمع
ووقف أمامها وقد تضائل الوجود في نظره
فأصبحت هي كل شيء فيه . واستقر بريق عينيها
في أعماق قلبه نارا فجلس إلى جانبها يحترق . . .

قالت :

— التنفيذ الحكم جئت ؟

— أجلته أياماً

— إذا تريد تعذبي ؟

وعز عليه وهو القائد الظافر أن يعترف لها
بهزيمته ، وفنك أنوثتها برجولته ، فقال :

— ذلك ما تستدعيه الظروف

وخشى غدر عاطفته أن تضطره إلى الاعتراف
فقام بقتل ساقيه اقتلاعاً

قال الرئيس :

— ترمى إلى القيادة العليا نبأ حكمك بالاعدام
على الجاسوسة الصينية تسي نانا ... أفعلت ؟

— نعم

— فاذا ما جن الليل ذهبت إليها ؟

— نعم

وأجبت تنفيذ الحكم باعدامها ؟

— نعم

— أذلك لأنها شفقتك حباً ؟

وهنا اختلج قلب الجنرال ونظر إلى نانا فاذا

بوجهها أبيض كالثلج وتتم :

— نعم أحببتها

أحببتها ... !

وحلت هذه الكلمة سمادة الدنيا ودخلت

إلى صدر نانا ، ونظرت إلى رجلها بعترف بحبها
فأشرق وجهها وابتسمت له

وتداول الرئيس مع الأعضاء في صوت خافت

وانتصب في جلسته ونطق بالحكم

وتلقى الجنرال حكم إعدامه مع نانا بهدوء بال

ورباطة جاش ... وتأنوهت نانا وسكنت كأنما على

رأسها الطير

استولى الجنود اليابانيون على منشوريا فأمر

الامبراطور بتسريح الأسرى والعفو الشامل عن

جميع المحكوم عليهم ، وأمرع أحد الفرسان إلى

الميدان برسالة الامبراطور لينقذ حياة الجنرال ونانا

والطريق طويل صخري ، والفارس ينهب

الأرض بجواده وقد بقى على موعد إعدامهما نصف

ساعة . ومضت عشرون دقيقة كان قد نال الجواد

الاهياء ، فيئس الفارس من إمكان الوصول ، ولكن

الأمم عاوده فاستحث الجواد

ها قد لاحت له خيام المعسكر كنفط بيضاء

تحت الأفق . ولم يبق سوى خمس دقائق ...

ووقفت نانا تنظر إلى فوهات عشر بنادق

تصوب إلى صدر حبيبها . فأظلمت في عينها الدنيا

وشمرت بقلها بتصدع ...

ودوى الرصاص فسقط الجنرال وسقطت معه

شعاب قلبها ...

وصوبت إليها الفوهات بدورها ونادى رئيس

القوة :

واحد

اثنان

وإذا بالفارس بصرخ ويسقط من على ظهر

جواده اللاهث أمام الرئيس وييده الرسالة ، فتناولها

منه ونظر إليها وإلى جثة الجنرال ، فازدجت في

عينه الدموع ودفع الرسالة إلى نانا

وهوت نانا على جثة رجلها تشبهها لثما وتقبيلا

فأبعدها عنها الجنود برفق فنظرت نانا إلى السماء

وقالت :

— رب لم حكمت على بالحياة ؟

محمد محمد مصطفى

أمين بلوك الضباط بمدرسة البوليس

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثلث ١٢ قرشا



الحديقة حيث تطرح على سريريه آملاً زيارة طيف
الحبيبة في منامه

وعاد الفتى في المساء التالي الى مكان الملتقى ، وبات
ينتظر موافاة الحبيبة فأخفقت آماله ؛ وعاود الكرة
مراراً فما رأى في جنة غرامه غير أزهارها ، وما
نشق غير عبيرها . ومرت الليالي فتيقن العاشق أن
مره قد اقتضح ، وتأكّد أن الحبيبة قد غادرت الدير
وعبثاً فتش عنها فما عثر لها على أثر

— ٢ —

ومرت على العاشق أيام ساعاتها أعوام ، وهو
يشغل نفسه بالتمثيل على المسارح وفي قلبه غصص
من تذكارات الفتاة المجهولة

وفي ذات ليلة كان فلوريدور يقوم بتمثيل دور
مؤثر فحالت منه التفاتة الى مقاعد الطبقة العالية ،
فرأى حبيبته شاخصة اليه وقد ارتسم الحزن العميق
على ملامحها وآسأقطت من عينيها الدموع . وقف
الممثل مشدوهاً الى أن سمع منه صوت الملقن الذي
حسب أنه نسي دوره ، فساد الى التمثيل بلهجة
ملأها الحب روعة وهو يتبع على ملامح من يهوى
تأثير إلقاءه وإيمائه . وما انتهى من التمثيل حتى
هرع الى غرفته مغنياً أنوابه واندفع الى مدخل
المرح لعله يرى خالصة له . فلم يوفق الى لقائها ؛
وتكررت هذه الحادثة والممثل يحاول عبثاً مقابلة

— أحبك حباً ملأ جوانب نفسي وملك على

مشاعري

— لقد وهبتك قاي عروبنا لحب لا انتهاء له

— أحق ما نقولين ، أم هذا صدى غرامى

تردده الأوهام ؟

— يشهد هذا البدر المنير ، وهذا الروض

المنير ، ويشهد مبدعهما أنني لا أحب سواك ،

ولا أقف حياتي إلا عليك

وسمع من بعد وقع أقدام فذعر العاشقان

وتواعدا إلى الغد ؛ ونساق الشاب جدران الحديقة

المالية وتوارى مبتعداً في الشارع وهو يناجي نفسه

قائلاً : من تكون يا ترى هذه الفتاة التي تقف

حياتها على ، وما أنا إلا ممثل على المسارح

العمومية ؟ إن كل ما يتجلى لي فيها يتم عن محتد

رفيع وثغافة عالية . لقد أرادت أن تخفي اسمها عني

فقلت : مادمت في مدرسة الدير تلميذة أتقن العلم فما أنا

إلا أسيرة لا أملك نفسي ، فاقنع بما أعانته لك من

حي الآن إلى أن أبرح هذا المكان فأطملك على

الحقيقة وأسلمك يدي أمام الله والناس

وكان الفتى فلوريدور يستعيد ذكرى اليوم الذي

رأى فيه لأول مرة هذه الغادة الفاتنة تطل من

نافذة الدير وترسل إليه نظرة أوقدت جذوة الغرام

في قلبه . وتابع السير حتى وصل إلى غرفته

أصرح . إن الممثل الذى امتلك فؤاد وحيدتى هو أنت ، أيها السيد فلوريدور وصديق الممثل وهتف قائلاً — أما ؟

— عفواً ، إن فى هذا التصريح ما عس غرة نفسك ، ولكننى ألقا إليك فلا تخيب ألى ، فانك على ما أرى لا تعرف ابنتى وما اجتمعت بها ؛ فاذا ما تقدمت إليك بطلب ظاهره مستغرب يؤدى إلى إلزامك بتوضحية فان يصعب الأمر عليك ، وعليه يتوقف الابقاء على شرف اسمى وحياة وحيدتى وهى تعان أنها لا تريد أن تقترن بفيرك

— وما هى هذه التوضحية ؟

— إنك قادر على اقتلاع جرائم حبك من قلبها — وبأية طريقة أقتلع ما تسميه جرائم حبى ؟ — أصغ الى . . . إن وحيدتى لم ترك إلا عن بعد وأنت على المسرح مرتد أثواب الأبطال تنشد أجمل الأشعار ، فن السهل عليك أن تبدد أوهامها إذا أنت رضيت بالظهور إليها فى مظهر الرجل العادى ، بل الرجل المتهتك الكبير البعيد عن كل تهذيب وثقافة ، فتبتأ كد عندئذ أنها عشقت ثوباً ، وأنجبت بما ليس منك بل من أقوال الشعراء . إن ما أكلفك به هو الظهور بهذا المظهر فتحتترك وتشفى من دائها المقام ؛ وهل من قاتل للحب غير الاحتقار ؟

استغرق فلوريدور فى التفكير . لو كان ما يمتقده الدوق صحيحاً من أنه لم يجتمع بالفتاة وما عرفها ، لكان هنالك واجب يسهل انقيام به ، ولكن أنى للقلب الذى ضم المحبوب إليه أن يستسهل انسلاخه عنه . ولاحت الفتاة الشريفة الرفيعة المحتد لخيال الممثل واقفة من حبه على شفا جرف تكاد تنزلق عليه هازئة بقلب أبيها واعتقادات من تنتمى اليهم . وطال تفكيره وهو يقابل بين شخصيتها

الفتاة عند نهاية عمله ، الى أن دخل عليه يوما وهو فى لجج من الأحزان شيخ مهيب تدل أنوابه على أنه من علية القوم ، فاستقبله الممثل مستغرباً هذه الزيارة ، ولسكن الشيخ مديده مصالحاً وقال : عفواً أيها السيد ؛ إننى آتيتك ولا معرفة بيننا ، ولكن من الأمور ما يجيز تجاوز المألوف ؛ ولدى مسألة هامة يتوقف عليها شرفى وسعادتى . أنا نبيل وأنت من كرام الناس فسوف أتناول الموضوع بلا توطئة

— تكلم ياسيدى ، فأنا مصغ

— هب أنك أمير ولك ابنة جميلة فى ريمان الصبا وهى وارثة اسمك الوحيدة ، وقد وجدت لها عريساً من أعظم الدولة تحسده الملوك على أبحاده فلم تقبل ابنتك ما أعددت لها من سعادة فماذا تفعل ؟ — أترك لها الحرية ، وأجتهد أن أكتشف سر قلبها ، إذ لعلها وهبت قلبها لمن أمتلكها حبه فلا تستطيع مقاومة قضاء الله فيها

— وإذا عرفت أنها عاشقة ؟

— أطاوعها فى إرادتها وأساعدها على الاقتران بمن تهوى ، فليس بغير الحب من سعادة على الأرض — وإذا كان ما تشير به يفوت الامكان ؟

— ولماذا ؟

— لأن الفتاة التى أتسكلم عنها هى وحيدة الدوق بارسلان أحد نبلاء القصر ، وهذا الدوق واقف أمامك الآن ، ولأن الذى تهواه ابنتى رجل شريف ولا ريب ، ولكنه ممثل . . .

— فهمت يا مولاي . إن فى تنازل ابنة الدوق بارسلان إلى عشق من هو دونها نسباً لعاراً تأباه الطبقة المميّزة بالألقاب ، ولكن ما تعنى بهذا الكلام ؟

— إذا كان الأمر لم يتضح لديك ، فهأنذا

من جبل لا قبل له يبلوغه ، وتذكر وعده للأب
الشيخ المتوسل الضعيف . فمالك عواطفه وفيها
ثورة وسعير

وجلس فلوريدور الى المائدة بين الدوق وجبيته ؛
فلما قدم الخدم أول لون من الطعام كان قد
ملاً كأسه وأفرغها في جوفه دفعة واحدة ، ثم
ألقها بكأس وكأس ؛ ثم أخذ يمثل دوره متكلماً
بلهجة عوام الناس منتخبا ألفاظه السمجة ؛ ومامرت
نصف ساعة حتى كان فلوريدور يحملني بعينييه
ويقسم ويعلن متدحرجاً تحت المائدة وقد سحب
غطاءها معه فتدحرجت الأواني تتحطم بفرقة
أخفت الزفرات التي كانت تندفع من فم شهيد
المروءة بالرغم عنه

ونفضت ابنة الدوق بإشارة من أبيها وقد علا
وجهها اصفرار الموت ، فتقدم الدوق الى الفتى
قائلاً : — إن مروءتك تفوق إبداءك في التمثيل .
لقد جبرت فؤادي الكسير ، دعني أسد إليك
الشكر الذي تستحق . ولكن ماذا أرى ...
ماهذه الدموع المتدفقة من عينيك أيها السيد ...؟
ووجهم الدوق إذ لم يجبه فلوريدور بكامة ، بل
اندفع الى خارج القاعة كأنه فقد رشده مرسلًا
ما كبته من زفرات وعويل

— ٤ —

وسر فلوريدور بعد أيام قرب دير راهبات
الكرمل ، فرأى جماعاً محتشداً في الأسواق المجاورة
وسمع رنين الأجراس مؤذنة باحتفال كبير ، وإذا
بمربة مذهبة موسومة بشارات الشرف ووراءها
عدد من المربات الأخرى ، وكلها فاخرة تجرها
الحياد المطهمة . فسأل أحد المتفرجين عن هذا
الاحتفال فقال له : هذه عربية الدوق بارسلان تحمله
وامرأته لحضور حفلة ابنتهما ...

والتضحية التي يمرضها أبوها عليه ، فاذا بصوت
الشيخ الوقور يرتفع قائلاً : لا تردد ، أيها السيد
الكريم ! ان ما يوجه إليك الآن انما هو رجاء
والد حصر في وحيدته كل ما في الحياة من سعادة
ومجد وآمال ؛ فإنا إلا شيخ هاو ضعيف ، بل أنا
أحد أشراف وطنك أضرع إليك أن تحفظ اسم
سلاتني من العار ، فلا تدعني أذهب بواجبي إلى
القسوة على ابنتي التي لم يترك لي الدهر سواها
وأدى كلام الشيخ قلب الفتى ، فوعد بالقيام
بما يطلب منه لاستئصال حبه من قلب الفتاة
الوحيدة التي ملكت لبه وملأت جوانب نفسه

— ٣ —

وفي اليوم التالي عند الظهر أعلن خادم القصر
لسيده الدوق قدوم الممثل فلوريدور . فقال الدوق
أدخله إلى البهو الكبير ، وها أنذا آت إليه
دخل فلوريدور البهو وجاء الدوق يصاحفه ؛
ثم ظهرت الغادة ، فقال الدوق :
أقدم إليك ، يا ابنتي ، الممثل فلوريدور . الذي
أعجبت بتمثيله ؛ وهو من كبار أهل الفن ، ولذلك
دعوته إلى مائدتنا ولعلك تسرين بذلك

وطأطأ فلوريدور رأسه مفكراً بأية فظاظة
يجب عليه أن يبتدىء بتمثيل دوره الذي عاهد
الدوق على القيام به ؛ ولكنه ما رفع بصره وشهد
خالبة لبه حتى علا وجهه الاصفرار ؛ وإذا مدت يدها
لتصاحفه وهي ترتجف من الشوق خيل إليه أنه
يلصق شفثيه بشفثيه ، ويفرق نور عينيه بألوار
عينيه . والتفت الى ما حوله فارتعش أمام مظاهر
الأنبهة والبذخ في هذه القاعة تقف بينها فتاة حديقة
الدير التي أقسمت له بالله ألا تحول عن حبه
ولا ترضى بغيره رفيقاً لحياتها ، فرأى هاوية سحيفة
تنفتح تحت رجله ولاحت له الحبيبة في معتصم

في بلاد أسحر والجبال

على قمم الألب

ترجمة أحمد فني مرسى

وفي الجنوب حيث
تقوم جبال الألب سداً
منيعاً بين السماء والأرض
وقد جللت الثلوج
رؤوسها بلونها الشف،
وبربقها الغرار، يقصد
محبو الرياضة والمخاطرة،
فيتساقون شفاف النلال،

ورؤوس الجبال، ممرضين حياتهم لدهام الخطر،
وفاجيء الهلاك

وسأقص عليك في هذه السطور، قصة ممتعة،
لبعض هؤلاء الذين دفعتهم نشوة المغامرة، وحفزهم
حب الاستطلاع إلى كشف قيم الألب، والوصول
إلى ذروتها، على الرغم مما تخفى من حتوف،
ما وتكن من مهالك:

كان الشتاء ذلك العام، شديد الزمهرير، قارس
البرد، وكانت الجبال ملففة بشغوف من الجليد مؤزرة

يصف بعض كتاب الغرب سويسرا بأنها
« مستراد الغرب وماعيه » يؤمها الغربيون رغبة في
التروح والنطاق، وحباً في التجول والتساق، وميلاً
إلى اجتلاء الحسن وترشف الجبال

ففي الشمال حيث تنبسط السهول المخضرة،
وتمتد الرياض الأريجة، وقد أزرعتها الطبيعة بمطرفها
الأخضر، وطرزتها بكفها الصناع، باجاً ناشدو
السكنينة، وعاشقوا الجبال، فيقضون فصل الربيع،
مسرحين الطرف في جنبات المروج المنضرة،
متمعين النظر بسحر الطبيعة وروعة الكون

أقسمت ألا أسلم يدي إلى سواك، ولكنك إن
تسلم هذه اليد، فكل شيء يفصاني عنك حتى
إرادتك. فما أئذى أنخرط في سلك الرهينة لأبر
بقسم أقسمته أمام الله في الحديقة بين ذراعيك
وأقسمته أيضاً وأنت تخنق زفرانك، وتقضى على
كرامة نفسك

« اليوم أنشج السواد، وأسدل على وجهي
النقاب. وهذا الكتاب هو آخر فكر أوجهه
إلى هذه الحياة، وحتى تطلع عليه تكون حبيبتيك
مرغربت دي بارسلان قد ماتت عن هذا العالم
لتحيا بالله ... »
الراهبة إيناس

(ف. ف. ف.)

(٥)

ولم يقف فلويدور ليسمع تنمة الحديث بل
اندفع راكضاً نحو مسكنه الحقير وهو يقول في
نفسه: أواه، لقد نجحت في تمثيلي، وهذه
الحبيبة تتزوج اليوم بشريف من طبقة أهاما.
ويلاه من ظلم الأقدار!

وما آوى إلى غرفته حتى رأى على الخوان
غلافاً باسمه، فافتض ختمه وقرأ ما يأتي:

« بالرغم من محاولاتك اقتلاع حبك من قلبي
لم يزل شخصك نصب عيني، فإن أنظر إلى غيرك
حتى يواريني رمسى. ما فاني الجهد الذي بذلته
لأرضاء والدي، فقد كنت أقرأ في قلبك حقيقة
نفسك وأنت تسدل عليها ستار تمثيلك. ولهذا

هائلة تنحدر من ذروة الجبل إلى قوارة السهل — ولكن ماهي تلك الثلجة ... ؟ ... الثلجة هي مجرى من الثلوج اللدافقة المنحدرة من قمم الجبال إلى الهوى والوهاد ، وتنشأ عادة من أن الثلوج لا تنهض بما يشغل منها من الثلوج الجديدة المتراكمة ، فيدركها الهيار وتهبط إلى السهل جياشة يدفع بعضها بعضاً ...

وسطح الثلجة مفر خداع ، فهي تبدو هادئة وادعة ، حتى إذا وطئها الإنسان دون درب أو خربة سقط في هوة من تلك الهوى السحيقة التي يخفيها سطح الثلجة الفرار

وقد يقال البعض ... « ولكن لماذا يقدم الإنسان على اختراق الثلجة ، ويرمي بنفسه في الهاكة » ... والجواب على ذلك « أن عواصف الثلج تنشر عادة على صفحة الثلجة طبقة شفافة رقيقة من الجليد ، فتبدو لمن يراها مستوية ، منبسطة ممهدة ، حتى إذا وطئها القدم لم تنهض بها ، وهوى الإنسان إلى قوارة الهوة

والثلجات من تلك المناظر البهيجة التي تقع عليها نواظر رائدى الألب ، فهي في برقة الرفق ، ولونها الأزرق الصافي من أروع ما تقع عليه العيون ... فإذا أشرقت الشمس ، ونفضت عليها رميضاً من شعاعها اللطاف ، تجملت لديها أبهى الألوان ، وتلافت عليها أروع المشاهد

وعلى حفاف الثلجة يرى الناظر ، إذا سرح الطرف ونصى النظر « مناضد الثلج » Glacier tables قد انتشرت في جنبات المكان ... وهي قطع من الصخور الرقيقة المتناثرة التي تجملت تحتها الثلوج فرفعتها عن الأرض ، وكانت لها بمثابة قوائم ترتكز عليها كما ترتكز المنضدة ...

يبرود من الثلج ، عند ما خرجت الجماعة ، وكانت مكونة من خمسة رجال — كاشفين وثلاثة أدلاء — إذ لابد للمتسلق من دليل يهديه بين مسالك الصخور لأن من الهلاك المحقق أن يخطئ بين تلك الجبال خبط عشواء دون أن يعرف شعابها ويخبر دروبها وكان كل منهم مزوداً بفأس صغيرة لتحطيم ما يعترض سبيلهم من الثلوج الغزيرة والصخور



غروب الشمس على ثلوج سان موريتز

الناتئة التي قد تموقعهم عن مواصلة التسلق وكان الأدلاء يحملون على ظهورهم حقائب من الصوف « rucksack » مملؤة بما خفف حمله من طعام وشراب ، هذا عدا جبل متين النسيج ، يشدون به بعضهم إلى بعض في مواقع الأخطار

أخذ السفر يتحرك وتبد الحظي ، ثابت القدم فلا أوغل في المسالك حتى اعترضت سبيله ثلجة

بعض ، وساروا يتبعون الدليل في رهبة وثؤدة
وأفصح الفجر ، فجلى لهم الطريق ، وبدأت
أمامهم قصة ناجية دقيقة الذروة لا بد من عبورها ،
تقع في جانبها الآخرة سحابة ، وكانت القمة عالية
ضيقة لا يتسع صدرها لأكثر من اثنين ، إذازلت
قدم ، فأنه أعلم بالمصير
وهنا يبدو ذكاء الدليل ومراحمه ، فهو دائماً
ثابت القدم رابط الجأش في مواقع الأخطار . لأنه



الغابات تغطي سفوح الألب السفلى

من الهلاك للإنسان أن يحفل أو يرجف ، أو يسير
مشارك الخاطر ، موزع اللب ...
وتقدم الدليل وفأسه في عناءه ، يشق بها
طريقاً إلى أعلى المرتقى ، والآخرون في أثره يزحفون
وقد عقل الحرف ألسنتهم وغشى الرعب قلوبهم ،
فأخذوا يتشبثون بالحبل كلما علق أبعصارهم قرارة
الهوة ... وأخيراً بلغوا الجانب الآخر بعد لأي

ونمود الآن إلى جماعتنا وقد اعترضت التلاحة
سبيلهم ، فطفقوا بدورون حول ضفافها في
حيطة وحذر ، حتى اجتازوها بسلام ، فإذا هم في
ضيق منبسط ، وإذا بالدليل يشير إلى شيء أسود
قائم على مدى البصر ، فرفع الجميع نواظرهم ليثبتوا
به معرفته ، فإذا به كوخ صغير قائم على سفح
الجليل ... ولكن أى كوخ هذا ؟ ... أقيم هنا
إنسان ؟ ... كلا ، فهذا الكوخ ليس في حيازة
أحد ، بل أفارته الحكومة ليتحرز به المتساقون ،
من عوادي البرد ، وظلمة الليل ، ووعناء السفر
وكانت الشمس الغاربة تطوى مطارفها الزاهية
عن الكون ، عندما بلغ أصحابنا الكوخ ، وقد
أضناهم النعيب ، ونال منهم النصب ، وبلغ بهم
الجوع مبلغاً جماهم يتبعون الظلم التهاماً ... ثم
أخذ الليل يلف الكون في مسوحه السود فاضطجع
كل منهم في ركن من أركان الكوخ وراحوا
في سبات عميق

ونيقظ الجميع بعد الواحدة بقليل على صوت
الدليل ، وكانت السماء صافية الأديم مسفرة
الوجه ، تسطع في جنباتها النجوم الراقية ، وتحقق
في حواشيتها الأضواء الراقية ، التي تتمكن على
الجليد قييد كالزجاج الرائق المذوّب ، وكانت
نسبات الألب العاطرة الهفافة تملأ الصدور وتنفتح
الجنوم عندما ابتعدوا عن الكوخ ، وراحوا
يتابعون التساق بين الحيطة والحذر ، فقد بدأت
أخطار الطريق تبدو جلية ، فتكشفت الثلوج ،
وبدت الهوى السحابة وعاد الجليد ينهار تحت
أقدامهم ؛ فابتعدوا الحبل وشدوا به بعضهم إلى

ومرت لحظة رهيبية اختفى الجسر بعدها عن
النواظر ، يحمل الرجلين في طوابعه ولم يبق إلا الحبل
بضطرب في أيدي الآخرين اضطراب الأرضية في
البئر البعيدة الغور . ترى أينقطع الحبل وينقضى
الأمر فيضم الألب ضحيتين جديدتين الى سجل ضحاياها ؟
ويمضي الآخرون دون هدى أو غاية ، حتى ليقنطهم
الجوع ويصرعهم البرد

ونجاة تقل عليهم الحبل فأدركوا أن
زميلهم ما زال معلقين بطرفه الآخر ، فأنجلى
اليأس عن قلوبهم ، ودب فيها الأمل ، فأخذوا
يجذبون الحبل في هدأة وصمت وبعد
لحظات ظهرت رأس أحد الرجلين وهو يحطم
بقأسه ما يموق الحبل من الجليد . وما بلغ حافة
الهوة حتى انبرى بعين زملائه على اخراج الدليل
الذي ظهر بعد لحظة وعلى نفره ابتسامة هادئة ، وهو
يتمتم بكلمات الشكر

وجلسوا جميعا التماساً للراحة بعد هذا الجهد
البالغ ، ثم قاموا يبحثون عن جسر يعبرون عليه
الهوة ؛ وأخيراً عثروا بعد جهد جهيد على جسر
أشد تماسكا ، وأثبت بناء من الأول ، فتقدم
الدليل بحبزه في حذر ، حتى إذا ثبت منه تبعه
الجميع الى الضفة الأخرى من الهوة

وكان في الجانب الآخر مرتفع صخري ينحدر
إلى حافة التلاجة ، فكان لا بد من ارتقاؤه ، فصعد
لدليل وهم في أثره ، إلى أن توقف فجأة متقصيا
النظر الى الأفق البعيد وقد عرى وجهه عبوس
وجوههم فتلفت الجميع إلى حيث ينظر ، فإذا بهم
يرون على مدى البصر ، ضبابا أبيض كالذخان

وجهد ، فإذا بهم في منبسط من الثلوج يضم تلاجة
جياشة هائلة ، تقوم على ضفافها مرتفعات من
الجليد تنهار إلى التلاجة مرتفعاً بعد آخر فهم الآن
بين هلاكين . فالتلاجة عن يمينهم مأبجة مضبدة ،
والثلوج عن يسارهم منهار متساقطة ، فلا سبيل
إلى النجاة إلا بعد التلاجة ولكن أنى لهم ذلك ؟
تقدموا قليلا فإذا هم أمام هوة لا يدرك البصر
مداها ، عليها جسر رقيق ضيق من الجليد ، فأسرع



من مناظر الألب الغربية

الدليل يتبعه أحد الرجال ، وكانت الفأس في يده
يمهد بها الجسر ، ويرسم بها مواقع الخطى ، وما
إن بلغ منتصف الجسر حتى بدرت منه صيحة رعب
عالية ، فالتفتوا جميعاً فإذا الجسر ينهار تحت قدميه
ويتساقط إلى قرارة الهوة السحيقة

ولم يكن على الجسر في تلك اللحظة إلا الدليل
وزميله ، أما الباقون فقد ارتدوا إلى حافة الهوة
ممسكين بطرف الحبل

وكان الجميع يصعدون في ريث وحذر ، فان
زلة قدم واحدة تؤدي بهم جميعاً إلى الهلاك . وأخيراً
بعد لآلئ وعناء ، بلغوا نهاية الحائط فجلسوا يتناولون
طعامهم ... وامتنع احد الرجال عن الطعام ، لأنه
كان يحس بدوار شديد ، فقد ثقل عليه رأسه
وامتقع لونه ، وآلمته عيناه ، وتذلت زفراته ، وذلك
لخلخلة الهواء في الطبقات العليا من الجو ... ولكنه
على الرغم من ذلك لم يفكر قط في التأخر او العودة
وبعد الطعام بقليل قاموا يصلون السير ،
ويتابعون التساق ، فإنه لم يبق أمامهم إلا القليل
للوصول إلى قمم الألب ؛ فساروا يحثون الخطى بعزم
وجهد ، فمروا ببعض القمم ، واجتازوا بضعة
مرتفعات متقاربة

وكانت الشمس قد ارتفعت ، والنهار قد متع ،
فطرق سمعهم صوت متزن الجرس ، متسق النبرات ،
يعني « أغنية النصر » المروفة ، فالتفتوا جميعاً ،
فاذا بالدليل قد باع طلائع القمم ؟

(عن الانجليزية) أحمد فني مرسى

قصص اجتماعية

مترجم: بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

مجموعة من القصص الرفيع الشائق الثمانية من أعلام
الأدب الفرنسي م : بورجيه - كويه - أناتول فرانس .
موباسان - تيريه - مارسيل بريفو - دي بانفيل - جان
لوران . مع تراجمهم النقدية . ومترجمة بأسلوب فائق .
في ثلاثمائة صفحة طبع دار الكتب

ثمنه ١٠ قروش وبيع مؤقلاً بـ ٦ قروش بخضم ٤٠٪
عدا البريد وهو قرشان لدخل القطر وأربعة خارجة
ويطلب من إدارة الرسالة وجميع المكاتب

يتقدم نحوهم في سرعة عجيبة ... فقال الدليل :

— إنها عاصفة ثلجية تحتاج الجبال ... فسأل
أحد الرجال :

— وهل تلبث طويلاً

— من يعلم ؟

وأرسل الدليل بصره يميناً وشمالاً ليتثبت
من موقعهم ووجهة سيرهم قبل أن تغشاهم العاصفة
وتضرب عليهم حجابها الكثيف فتحجب عنهم
الطريق وبعد لحظات كانوا يدرجون في
جوف العاصفة التي أحاطتهم جميعاً كتلا من الثلج
تتحرك ، وخامت عليهم أبراداً من الجليد ، لفهم
من قمة الرأس إلى اخمص القدمين

وقد دامت العاصفة برهة غير قصيرة ، هدأت
بعد ما ثورة الريح ، وتفتح ضباب الثلوج ، وأشرقت
أشعة الشمس ، فأخذوا ينفذون عن جسومهم
حائل الثلوج ، ويمسحون عن جبينهم ماءها البارد
وكانوا قد اجتازوا المرتفع وتزلوا في واد
منبسطة يلوح في نهايته ، حائط أملس من الثلج ،
لا تتلاقى به كف ، ولا تتماسك عليه قدم ، يبلغ
ارتفاعه زهاء المائة متر

فوقفوا أمامه مشدوهين ، ومضت برهة قبل أن
يتبس أحداهم بينت شفة ، كأنه يدور بخلاص ذلك
السؤال « كيف لنا أن نتلاقى بذلك الحائط الأملس ؟ »
بعد برهة من الحيرة والتساؤل ، تقدم
الدليل فشد أوساطهم إلى الجبل ، وأخرج
فأسه ، وسار أمامهم إلى الحائط فأخذ يدرجه
بالفأس ، ويحفر فيه مواقع الأقدام ، ثم أخذ يصعد
رويدا رويدا ، وهم في أثره ، وكل بيده الفأس يشق
بها الطريق



الصيد ... ولم يكن الشاب بالجامد القلب ، الحامد
العاطف ، بل كان مشبوب الاحساس ، ملتهب
الشعور ، فسرعان ما استجاب لبريق عينيها ، وخضع
لرخامة صوتها ... ولكنه لم يكن يمتدح أن حظها
سيسمو به إلى مراتب النبلاء ، بل أيقن أن اهتمامها
به لا يمدو فرجة لمواطنها المكبوتة ، وأهلية
لنفسها الحائرة ، ولم يدر أن هذه الفتاة تذكره
أصحاب الطبائع اللزيقة والشخصيات المستعارة ...
ولكن قد يجيء الوقت الذى ترى فيه العين
الغبية الفاشية في عين صاحبها نور الحب وبريق
الهيام ، وهما قد جاء للفتى الموعود ، ولم يكن بالغى
الأحق فسرت الطمأنينة إلى قلبه ، وتمددت بينهما
المقابلات حتى إذا ما خلا كل إلى صاحبه كشف
له عن نفسه وباح له بمكنون سره ؛ فتيها ممان
وبتناجيان ثم ينصرفان دون أن يذبا سرا ،
أو يفضحا أمراً ... ثم تمكنت بينهما الألفة حتى
لم يستطيعا أن يكبحا تلك المواطن الثائرة التى
كانت تضطرم في قلبيهما

ولكن الفتى كان دونها شرفاً ومرتبته ، فلم
تكن تستطيع أن تملن زواجهما به ، فالتحذت المسألة
حلاً وسطاً ، فعزمت على الاقتران به دون أن يعلم
بذلك أحد ... ثم نظما فيما بينهما مواعيد المقابلة ،
فكانا يلتقيان في إحدى غرف المنزل بعيدين عن

عاشت عيشة مترفة في قصر ريفى بديع يحف
به الجبال من كل جانب ... وكانت امرأة ذات
حسن عبرى ، وجسم خصب ، وأنوثة متيقظة ،
ترنو إليها العيون أينما حلت ، وتشيعها القلوب أينما
ذهبت ، حتى أصبحت حديث أهل المدينة كلها
وفتنة لشبابها ، فترامى اسمها إلى ما وراء ذلك الاقليم
« ويسكس » بحمد الناس في ذكره حلاوة وفي
رديده متعة وسلاوة ... أما هي فقد استعذبت
تلك الحياة وأخلدت إلى هذه الدعة واطمأنت إلى
تلك الألسنة التى تهتف باسمها في كل يوم ، ولكن
قلها المتكبر الذى كان يشرف على تلك القلوب
الساجدة العابدة لم يجد هواه إلا فى شاب رقيق
الحال عادي الهيئة قد انحدر من أسرة فقيرة متواضعة .
إذ كان أوه يعمل كاتباً فى « دائرة » والدها ،
ولكنه كان وديع الخاق ، كريم النفس ، رقيق
المزاج ، قد أغرقت به فتاة قروية ساذجة ، فلم يرد
أن يصدمها فى حبها الأول ، بل وهبها جانباً من
حبه الشاب الفاضل ، وأحاطها ركناً من أركان
قلبه الفسيح العاصر ؛ فأرادت تلك الفتاة النبيلة
« كارولين » أن تستأثر بذلك الشاب فاغتصمت
فرصة تردده على منزل والدها بحكم عمله وأخذت
تنوود إليه ... تحذته مرة وتغازله أخرى ؛ وكانت
ماهرة فى هذا الفن مجيدة لهذا النوع من

أخيراً أن زوجها المسكين قد قضى نحبه فبقيت حائرة لا تدري ما ذا تعمل

ولقد أحست أولاً بالحزن والأسى على فراقه ، لكنها ما لبثت أن أخذت تفكر في مكانها كابتة أحد النبلاء فنظرت الى الجنة وقالت : « لماذا تموت هنا أيها الزوج التمس وفي تلك الساعة ؟ ... لماذا لم تمت في كوخك ... ؟ إذا لم أعرف أحد أمرنا ولبقى سرنا مكتوماً » ... ولكن دقات الساعة العالية في سكون الليل العميق قد أيقظتها من ذهولها ، فهضت بسرعة الى الباب ، وقد عجزت على إخبار والدتها بحقيقة الأمر طائفة أن هذا هو الطريق الوحيد لخلاصها من هذا المأزق ... غير أنها لم تكذب تدنو من الباب حتى رجعت عن عزمها وقد أيقنت أن في إيقاظ والدتها إفشاء لسرها كله ، فعولت على حمل الجنة بعيداً من دون مساعدة أحد ... ثم أخذت نهياً لهذا العمل الجسيم ، فألبسته ملابسها وربطت ذراعيه وتزأت به سداً ضيقاً ... ثم حملته الى مكان أمين تظله الأشجار ... وعلى باب كوخه ألقت بحملها الثقيل ؛ وقد أخذ منها الثعب كل ما أخذ ؛ ثم وضعت في يده مفتاح بيته الخشبي انعمي الحقيقة على الناس ، وانحنى عليه وقبلته القبلة الأخيرة ، وعادت أدراجها وهي تعنى آثار قدميها في الطريق ... ثم انسلت الى مخدعها دون أن يشمر بها أحد ؛ وأوت الى غرفتها وأغلقت نوافذها ، وأعادت كل شيء الى ما كان عليه

ولكن لم يكذب بطلع الصباح حتى ذاع في المدينة نبأ موت ذلك الشاب الرقيق الوديع على باب منزله وهو يحاول فتحه ... لقد كانت جميع الظروف تدل على أن الميتة طبيعية ، فلم يثر حولها نقاش ...

أعين الناس ، فيقضيان ساعة تسكر فيها روحاهما بالذرة الهدوء والغبطة ؛ ولكن هذه الماطفة المشبوبة ما لبثت أن خمدت فأخذت تفريق من السكر الأولى ، وخلت إلى نفسها تفكر فيما أتته من طيش ورعونة ، وكيف أن فتاة كريمة المختد عريقة النسب تتزوج من شاب دونها شرفاً وقدرآ ... وكان خائفاً بها أن تفترق بنديل عظيم ، أو قاض نابه ، أو أسقف جليل ... أجل لقد كان زوجها الشاب ذكي الغواد واسع الاطلاع ، ولكنه كان قليل التجارب ضيق الخبرة ...

لقد اعتاد أن يزورها تحت أستار الليل فيتساق إلى نافذة غرفتها فيجدها في انتظاره ، ويأوى إلى جانبها ساعة والناس نيام ، ثم يعود إلى كوخه الصغير قبل طلوع الفجر ... ثم جاءها ليلة وقد شاقه الحب إليها ، ولكنه لم يمض معها ساعة حتى مل الحديث وهم بالنزول ، فقد كان لقاء ثقيلاً متكلفاً سمع فيه ما أناره وأخرجه عن نفسه إذ شمر أن قلبها قد أخذ يتحول ...

والحقيقة أن اهتمامها بمصيرها أخذ ينسحب عنها إياه ... وعلى فجأة أحس بالمقطع أحشائه فهب وافقاً ثم مال الى النافذة يستنشق بعض الهواء ، ثم ما لبث أن همس بهذه الكلمات : « آه يا قلبي ! » ثم سقط على الأرض جثة هامدة ... فأمرعت إلى إشمال الصباح وقد خبا ضوءه وانحنى عليه تسأله ما به ، ولكن قلب المسكين كان قد وقف ، فاستيقظ في ذهنها ما كانت الطبيب قد قاله له من أنه مصاب بمرض القلب ، وأن هذا المرض قد يورده حتفه يوماً

ثم أخذت تفحصه مدة طويلة ولكنها أدركت

ولكن بعد تشييع الجنازة أخذ الناس يهيمسون أن رجلاً كان سائراً في الطريق في ساعة متأخرة من الليل ، فرأى شبح امرأة يدب في الظلام وهي تبحر جثة ثقيلة في طريقها إلى كوخ ذلك الفتى ، فأخذوا ملابسه القديمة وخصوها من جديد ليروا فيها من آثار الجر على الأرض ، وأخيراً عرفوا أنه هو الرجل بعينه .

أما كارولين الجميلة الذكية فأخذت تفكر فيما يجب أن تعمله ... فرأت أولاً أن تعترف بالحقيقة كلها ... إلا أنها بعد أن بلغت إلى تلك المرحلة دون أن ينكشف أمرها أو يرتاب فيها أحد ، عزمّت على بذل مجهود آخر لأخفاء باقى العالم ... وسرعان ما لمّت في خاطرها تلك الفكرة ... لقد كان ذلك الزوج يحب فتاة قروية قبل أن يقع في شرك هذه النبيلة ، وكانت هذه الفتاة لا تزال على حبها إياه إذ لم تكن تعرف من أمر زواجه شيئاً . . . على أن نفوذ كارولين على أولئك الفلاحين الذين يعملون في أراضي والدها كان عظيماً ... لها الكلمة النافذة والقول المسموع ... فعزمّت على مقابلة تلك الفتاة تمسح فيها عارها ومخماها نتيجة وزرها بعد أن أخذت تفيق من نشوتها ، وشعرت بالآلام الفضيحة والندم تنوش صدرها كلما ذكرت ذلك الزوج المنحوس ، حتى لقد كرهت اليوم الذى لقيته فيه وودت أن لم تكن قد رآه قط . وسرعان ما اهتدت إلى تلك الفتاة فوجدتها ممتعة اللون مهدودة الجسم ، قد ارتدت ثوباً أسود حداداً على ذلك الشاب الذى أحبه وأخلصت له وإن لم يمتن بها إلا قليلاً ... فقالت كارولين :
آه ! لقد فقدت حبيبك يا « مبللى »

فلم تستطع الفتاة أن تحبس دموعها المهمة وقالت : « لم يكن حبيبي تماماً ولكنى كنت أماً حبيبتة . أما وقد مات فاني لا أهتم بالحياة بعده »
« أتستطيعين أن تبقى على سر من أسرار يامبللى ؟ إن هذا السر يتصل بشرفه ولا يعرفه إنسان غيرى ، ولكن يجب أن تعرفيه أنت »

فأظهرت الفتاة استعدادها لكتمان هذا الأمر . وحقاً لقد كانت وفيّة لذلك الشاب الذى أحبه والذى تبكيه الآن

« إذاً فقابلينى اليوم بعد الغروب عند قبره أفض إليك به »

وفى غسق تلك الليلة من ليالى الربيع الجميلة ، كان شبحا هاتين الفتاتين يحومان حول قبر ذلك الفتى التمس . وفى ذلك المكان الموحش ، وفى تلك الساعة الرهيبة ، أخذت الفتاة ذات النسب والجمال تفص على ابنة الحطاب كيف أحبه وتزوجته سرّاً ، وكيف مات فى غرفتها ، وكيف جرت فى جوف الليل إلى كوخه حتى لا ينكشف أمرها

فصاحت تلك الفتاة الساذجة مذعورة :

— تزوجته يا سيدتى ؟ !

— نعم ولكن هذا كان طيشاً منى . كان الأجدر به أن يتزوجك أنت يامبللى فقد كنت له ، لكنك فقدته

— نعم وهم من أجل ذلك يستخرون منى

فيقولون : لقد جننت به حباً وهو لم يلتفت إليك

— إن النصر على أولئك المتهمكين حلو لذيد ...

لقد فقدته حباً ولكن يمكنك أن تسترديه ميتاً وعلى ذلك تستطيعين أن تنالى من أولئك الساخرين ما تريدن

— وكيف ؟

ثم أعطتها كارولين كل آثار الذكرى التي كان زوجها قد قدمها إليها حتى خصلة الشعر
وفي اليوم التالي أعلنت الفتاة ذلك الأمر بين
الناس حتى ذاع بين أهل المدينة كلها . وفي ذهول
ذلك الموقف الجديد أخذت مبلى المسكينة تمثل
الدور كما لو كان قد حدث معها فعلاً . واستطاعت
بما كانت تصيبه من مال كارولين أن تشتري منزلاً
صغيراً وأن تتردد على الكنيسة من وقت لآخر ،
وقد ازدادت جمالاً وفتنة أيقظا في فلوب خدينتها
القرويات الغيرة والحسد .. ثم فكرت في أن تقيم
نصباً تذكارياً فوق قبره ما دامت كارولين تقوم بدفع
النفقات ، فما عليها هي إلا أن تقدم الحزن والألمى ...
ومالبت مبلى أن ارتاحت إلى تمثيل دور الأرملة ،
ووجدت في زيارته كل يوم والبكاء فوق قبره لذة
وتفريجاً . فكانت تنثر الأزهار فوق قبره وأصبحت
تعتمد وهي تخطر في نوبها الحزين أنها كانت
زوجة حقاً

ثم اتفق أن صرت كارولين يوماً مع بعض
صاحباتها بتلك المقبرة فلمح مبلى وقد انحنت على
قبر حبيبها تنثر فوقه الأزهار في رقة وحنان ،
فتأثرن لهذا المشهد المؤلم وعجبن لذلك الوفاء النادر
الذي لا بد أن تكون صاحبه قد وجدت صدامه
في ساكن ذلك القبر .. أما كارولين فقد شعرت
كأن نورا غريباً ينبعث من عينيها بحسد تلك الفتاة
على مكانها هذا كأنه لا يزال بقلها بعض الحب لزوجها
المتوفى ... ولكن الفروق الاجتماعية أكرهتها على
إخفائه في طيات صدرها . وأخيراً لم تستطع تلك
الفتاة أن تقهر تلك المواطن القوية التي كانت
تصطرع في نفسها ... فذهبت يوماً إلى المقبرة ،
وكنمت وراءها حتى إذا ما جاءت مبلى تنثر الأزهار

فأفضت إليها كارولين بما يجب أن تعمله ...
وهو أن تعلن مبلى بين الناس أن ذلك الشاب كان
قد عقد عليها سراً ، وأنه كان يزورها في كوخها في
الليلة التي توفى فيها . فلما قضى نحبها حملته
إلى منزله لتدراً عن نفسها الفضيحة والعار .. وأن
تقول إنها كانت عازمة على حفظ ذلك السر في نفسها
لولا أن الاشاعات والأقاويل قد أجبرتها على إفشائه
فأجابها ابنة الخطاب وهي دهشة لهذه الفكرة :
— وكيف أثبت هذا ؟

— يمكنك أن تقول إنك تزوجته في كنيسة
القديس ميخائيل في مدينة (باث) باسمي بحجة أنه
أول اسم خطر ببالك لتنفذي اسمك من التهمة ...
وسأعينك على ذلك

— أوه إني لا أحب أن ...
— إذا عملت ما أمرك به فاني سأكون صديقة
لك ولوالدك وإلا فسيكون لي معكما شأن آخر ...
وسأعطيك الآن خاتم الزواج لتلبسيه كما لو كان لك
— هل لبسته يا سيدتي ؟
— في الليل فقط

وأخيراً قبلت مبلى ما عرضته عليها كارولين
دون تردد كبير إذ لم يكن الوقت يحتمل تردداً ...
ثم أخرجت الفتاة النبيلة الخاتم من صدرها ووضعت
في أصبع مبلى وهي واقفة على قبر حبيبها . فاقشعر
بدن الفتاة ومالت برأسها وقالت :

— أشعر أنني أصبحت عروساً لجثة
ولكن هذه الفتاة مالبت أن شعرت أنها
قد ارتبطت بتلك الجثة قلباً وروحاً وأحست بشيء
من الهدوء يسرى إلى نفسها ... فخيل إليها أنها قد
استحوزت في الموت على ذلك الشاب الذي عبدته
على غير طائل في الحياة

عليه الآن . أنا أرملة الوحيدة . فان نصيبى فيه
أوفر من نصيبك . لأنى أحبه وأبكيه وأدعى باسمه
العزير

فصاحت كارولين وقد كاد الشرر يتطاير من
عينها :

— إنى أحبه ولن أسمح لخلوقة مثلك أن تنزع
منى ... كيف أسمح بذلك وهو أب لذلك الجنين
الذى يضطرب فى أحشائى ... يجب أن تعيده إلى
ثانية ... مبلى ! مبلى ! ألا ترحمنى وتقدرين موقفى ؟
يا للتمرع ! إنه عدو النساء ، لماذا لم أترو قبل أن
أقدم على العمل ؟ هيا أعطينى ما أعطيتك وأكدي
لى أنك ستساعدينى على نشر الحقيقة
— محال ! محال ! ؟

وقد ازدادت الفتاة إصراراً وعناداً : « انظرى
إلى هذا النصب ... انظرى الى ثوب الحداد ...
الى هذا الخاتم ... استمعى الى الاسم الذى ينادونى
به ... إن نفسى ليست أهون على من نفسك ...
أفبعد أن أعلن أن حبه حبنى ، وأن نفسه نفسى ...
وأحمل اسمه بدلاً من اسمى ، وأتخذ من موته حزنى
وشجنى ... أجيء اليوم فأهدم ما بنيت به
ودمى ؟ لا ! لا ! لن أَرْضَى لنفسى هذا المار ...
إنى أصدقك القول يا سيدتى ... إن قصتى هى
الحقيقة بعينها ، وأنت كنت واهمة فى كل ما ادعيت
لنفسك ... ولكن أرجو يا سيدتى ألا تدفعينى
إلى هذا ، إنى أتوسل إليك أن تبقيه لى »

لقد كانت مبلى تزعم أنها أرملة تدافع عن
زوجها ... حتى أن كارولين رقت لخالها بالرغم
منها ... فقالت لها :

— نعم ... إنى عالمة بموقفك ... واسكن فكري

على القبر كماداتها كل يوم برزت لها كارولين وهى
شاحبة مرتجفة تقول :

— مبلى ! اقتربنى منى ! إنى لا أدري ماذا أقول
لك ... فقد كدت أموت

فمجبت مبلى لهذه المفاجأة الغريبة وقالت :

— معذرة يا سيدتى .. !

فدنت منها السيدة واختطف يدها اليسرى
وقالت :

— أعطنى هذا الخاتم

فأسرعت مبلى الى انزعاه من أصبعها ... ثم
أعادت كارولين سؤالها فى صوت حاد غاضب وقالت :

— إنى أطلب اليك أن تعطينى اياه ... أوه !
أو ه إنك لا تعرفين السبب ... لقد عمرائى حزن
والم لم أكن أنوفعهما !

فأجابتها مبلى وقد غمغمتها الذعر

— واسكن ماذا تريدن يا سيدتى ؟

— يجب أن تمنى أن كل ما عملته كان كذبا
وادعاء لا أساس له من الصحة ... وأنى أمرتك
أن تملأيه بحفاضة على اسمى ... وأنه لم يتزوج
غبرى ... وقصارى الكلام يجب أن نذبح الحقيقة
وإلا قضى على جسمى وعقلى وشرفى الى الأبد »
ولما كان لكل شىء حد فان للدموع والوداعة
حدهما أيضاً ... فقد أصبحت مبلى تعتقد أنها قد
امتزجت بذلك الشاب الحاد ودماء وأصبح لها الحق
فى أن تحمل اسمه كما حملته ... وأن تحلم به كزوج
وتتحدث عنه كزوج ... حتى لم تعد تفكر فى
سواه . وأخيرا قالت وقد غمرها اليأس والقنوط :

— لا ... لا ... إنى لا أستطيع أن أتركه ..

لقد أخذته منى حياء وردهته إلى ميتا . سأحافظ

بلاده أخيراً ... فلما انتهت عاد الى إنجلترا وقد رقى الى قائد فرقة ولما يبلغ الخامسة والعشرين ترامت أخبار ذلك الابن الى كارولين ... وكيف أنه قد أشرف على الذروة دون أن يكون صنيعة لأحد ... فأيقظت فيها غرائز الأمومة الكامنة وملأته كبرياء وغروراً . فأخذت تهتم بابنها الظافر الموفق ورغبت في رؤيته بعد أن توفي زوجها « المركيز » دون أن تعقب منه ولداً ... فاتفق يوماً بينما كانت تسير بعربتها خارج المدينة أن صرت بها إحدى الفرق العسكرية فوقع بصرها على ضابط شاب قد امتطى جواداً أصيلاً مطعماً ... فسرعان ما عرفت له ما بينه وبين زوجها الأول من شبه قوى ، فضعف هذا المنظر عواطف الأمومة التي بقيت كامنة في زوايا قلبها هذه المدة الطويلة ، فأخذت تسائل نفسها كيف صبرت على إغفاله هذه السنين الطوال ... فلو أنها كانت جريئة في حبها خاصة في عاطفتها ... لاعترفت بزواجها الأول ولنهضت بتربية ذلك الطفل كابن لها ... فإذا كان بضرها لو أنها فقدت هذه الجواهر النادرة وكسبت ابناً شهماً قادراً ... أخذت هذه التأملات والعواطف تعمل في قلب تلك المرأة المكتئبة الوحيدة ، وأخذ الندم بنوش فؤادها الحزين على عدم الاعتراف بزواجها الأول أضماض ما آلتها للافتران به وأخيراً لم تستطع أن تغلب تلك الرغبة القوية الملحة التي كانت تتأجج في صدرها حتى أيقنت أنها لا يمكنها أن تعيش دون أن تمان أمومتها لهذا الفتى ، فعزمت على أن تنتزعه من حضن تلك المرأة التي أخذت تضمحلها السكراهية والبغضاء لأنها استبدت بذلك الطفل دونها ... ثم أيقنت أن ذلك الابن سيرحب باستبدال فلاحه معدمة ، بأخرى نبيلة غنية

في ... ماذا أعمل ... فبدونك ان أستطيع أن أبقى على اسمي ... فانت نشر الأكاذيب والفضائح أحب شيء للجمهور ... » ولم تمض بضعة دقائق حتى كانت الفتاتان قد شعرتا بضرورة العمل معاً .. فأخذتا تتشاوران فيما يجب أن يعملآ ... وأخيراً عادت مبلى الى بيتها ... وأفضت كارولين الى أمها بكل ما حدث ... ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى تركت كارولين وأمها القرية وذهبتا الى لندن حيث وافتهما هناك مبلى بحجة تغيير الهواء على نفقة تلك الفتاة النبيلة التي كانت تشفق عليها في محنتها ووحدتها

وفي مستهل العام الجديد عادت مبلى الى القرية تحمل بين ذراعيها رضيعاً فأقامت في منزلها الصغير تعنى بذلك الطفل الجديد عما كان يصلها من كارولين من مال ...

وبعد ذلك بمامين تزوجت كارولين بأحد النبلاء ... فعاشرت معه عيشة سعيدة إلا أنهما لم ينجبا طفلاً ... بينما كان ابن مبلى يكبر شيئاً فشيئاً ، وكانت أمه تتوسم فيه يوماً بعد يوم صورة ذلك الرجل الذي استجوز على قلبها الشاب ... ثم ذهب به الى القبر ... فسهرت على تربيته قدر ما كانت تسمح به ظروفها ... إذ أخذت كارولين تنصرف عنهما شيئاً فشيئاً ، ولم تعد تفكر في طفلها إلا لماماً ... ولكن مبلى كانت تقطع من قوتها لتقوم بنفقات الطفل ، فأرسلته الى المدرسة الابتدائية .. ولما بلغ العشرين دخل في الجيش متخذاً من الجندي أهيته وعمله ، وسرعان ما أكسبته رجواته الكاملة وأخلاقه القوية ومواهبه النادرة إعجاب رؤسائه .. فخبوه بمطعمهم وحبهم حتى أبلى بلاء حسناً في تلك الحرب الضروس التي خاضتها

وفي اليوم التالي ذهت إلى بيت مبلى القديم في تلك القرية الصغيرة فوجدتها لا تزال في ثيابها السوداء الريفية حداداً على فقد حبيب شبابها ... فلم تكذب تخطو إلى داخل الكوخ حتى صاحت : — انه ابني يجب أن تركبه لي ... لقد أصبحت في موقف أحمى فيه العالم أجمع . أظنه يزورك من وقت إلى آخر

— كل شهر منذ أن عاد من الحرب ... ياسيدتى ... ويمكث يومين أو ثلاثة في كل مرة ... وأصبحه أحياناً في رحلات قصيرة . قالت هذا في صوت الظافر المطمئن فأجابها كارولين في هدوء :

— حسن . يجب أن تركبه لي . إنك لن تفقدى شيئاً فلك أن تربه متى شئت . سأذهب الآن إلى اثبات زواجي الأول وسأأخذه معي — لقد نسيت ياسيدتى أن هناك اثنين يجب أن يؤخذ رأيهما في هذا الموضوع ، لست أنا فقط بل هو كذلك

— سأتم كل شيء . لا تظني أنه سيرفض . ولكنهما لم ترد أن تسرع إلى مبلى بالتعرض إلى الأصل والنسب ، فقالت : إنه لحي ودي ولا يتصل بك في شيء . فأنفجرت القروية غيظاً وقالت في تهكم صرير : « ماذا يعني من أمر اللحم والدم ؟ إنى أترك المسألة له فلندعه يفصل فيها بنفسه »

فأجابها كارولين : « هذا كل ما أبقيه . قات أرسلني في طلبه ولأقابله هنا » . ثم أرسل في طلب الضابط ، وجلس الثلاثة في ذلك الكوخ الصغير يتداولون فيما بينهم

لم يدهش الشاب إذ علم أن أمه إحدى النبيلات

المشهورات فقد كان يعرف أن ولادته مخاطة بشيء من الغموض — أما سلوكه نحو البارونة فإنه لم يخل من الاحترام والتقدير ، إلا أنه كان أقل مما تنتظر ، وأخيراً وضع أمامه أمر التفاضل بينهما ومرعان ما قال قوله الأخيرة :

« لا ياسيدتى . إنى أشكرك كثيراً ، ولكنى أفضل أن أترك الأمور كما هي ، فإن اسم والدى هو اسمى على أى الحالات . إنك لم تعنى بي ياسيدتى إلا قليلاً عندما كنت طفلاً لا حول لى ولا قوة ، فلماذا أدعى إليك الآن وقد أصبحت قوياً قادراً ؟ ! إن هذه المخلوقة العزيرة (مشيراً إلى مبلى) قد حببني عطفها طفلاً ، وعالني شاباً ، وسهرت على مريضاً ، وحرمت نفسها حتى أنفقه اللذات من أجلى . إنى لا أستطيع أن أحب أمّاً أخرى كما أحبها . إنها أمى وسأكون دائماً ابنها ، ثم طوق عنقها بذراعيه وطبع على جبينها قبلة أودعها أرق عواطف البنوة وأسمائها

فلم تقوَ كارولين المسكينة على مشاهدة هذا المنظر الذى كاد يستل روحها من بين أضالعها . فقالت وقد خنقتها العبرات وتهدج صوتهما في حلقهما :

— إنك تقتلنى ! ألا تستطيع أن تحببني أيضاً ؟

— لا ياسيدتى . لقد كرهت أن تنسبني إلى

أبي الفلاح ، وإنى أكره أن أنتسب إليك !

فتهدت المرأة تنهدات عميقة عالية وقالت :

« ألا تستطيع أن تعطيني قبلة واحدة ... كما أعطيتها ؟

إنها ليست كثيراً ... هي كل ما أريد ... كل ...

فأجابها : نعم . ثم قبلها قبلة عابرة باردة كانت

فيها نهايتها .

تغمي هليل



هوميروس

من
اساطير
الأولين



الأولاد لبيس

لهوميروس

بمعلم الأستاذ دريني خشبة

هبت أورورا من فراش زوجها الدافئ الحبيب
(نبتون) فنشرت في المشرق غلالة سنية من
فيض ضوئها ، بينما كان مجلس الآلهة منعقدًا في
ذروة أولمب ، وقد استوى زيوس على عرشه ،
ومينرفا ... ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، قائدة
بين يديه ، تحصى آلام أوديسيوس ، وتبث أشجانه
وتصور للآلهة صنوف العذاب التي يتجرع غصصها
وحده في هذه الجزيرة النائية السحيقة ، فتقول :

« أبتاه ! يا سيد أرباب أولمب ! چوف ! اصغ
إلى ! وأنتم يا آلهة الخلود ! أعيروني انتباهة واحدة
منكم ، فانها حسبي ! إلى أين تصير الأمور إذن ؟
هاكم قد أصبح أمر الناس فوضى ... والطفلة
يمشون في الأرض مفسدين ، وكأننا أغمضتم
أعينكم عن خيارهم ، ولم يضركم ألا تنكفوا
أشرارهم ، فنسيتم الرجل الصالح أوديسيوس الذي
طالبنا منحكم محبته ، والذي بذل لشعبه مهجته ...
يشوى اليوم في تلك الجزيرة الوحشة يجتر هومره ،

أوديسيوس يبحر من جزيرة كاليبسيو

مقدمة الفصول السابقة (١) :

« لما وضعت حرب طروادة أوزارها عاد كل القادة
اليونانيين إلى أوطانهم إلا أوديسيوس الذي ضل طريقه
في البحر لما كان بينه وبين نبتون من عداوة — وقد
كانت زوجته يتلوى على قسط وافر من الجلال فطمع
فيها كل أمراء بلاده وحاصروا بيتها واستنفدوا
خيراته . وكان ابنه تنهك في طرى العود فلم يقر على
نضالهم ولكن ميترًا ربة الحكمة كانت تعطف على
والده وتمت أولئك العشاق ! فبدت لافتي في صورة
آدمية ونصحته أن يذهب من فورهِ إلى سطور ملك
بيلوس ومثالا يوس ملك أسبرطة ليسألها عما كان من
أمر أبيه — وقد أجرت معه مينرفا لحرسه وتسهر
عليه . وأكرم السكان وقادته وقص عليه ملك
أسبرطة تذيلات بروتيوس إله الشاطئ المصري عما
كان من أمر أوديسيوس وما كان من عداوة نبتون
إله البحر له . وأنه ما يزال منفياً في جزيرة كاليبسو
— وهال العشاق إنحار تليماك فصمموا على قتله عند
عودته وتربصوا له في البحر بالفعل . »

(١) نتجهد بقدر المستطاع أن نلخص جميع الفصول
السابقة حتى تتصل الحوادث في ذهن القارئ الذي سائر للملحمة
من أولها ، ولكي يستطيع من لم يسايرها أن يبدأ من أي
فصل شاء

وينير في صفحة السراب آماله ، .. كلا على كاليبسو
عروس الماء ... لا يملك سفينة فيقاع إلى الوطن ،
ولا يجد قلباً إلى جانبه فيبته حزنه ويشتكى إليه
لأواه ... وكأنما لم يكن بحسبه بعض ذلك ، بل
تسلط عليه الأقدار القاسية عصابة من الأعداء
الألداء يتربصون بابنه الشر ، وينتوون غيلته ، إذ
هو عائد من أقصى الأرض . من أسبرطة وييلوس
بعد رحلة منهكة باكية ، قام بها يتنسم خبراً عن
أبيه يشفى في قلبه غلة ، ويرى في نفسه كالوماً
ويجيئها رب السحاب الثقيل :

« أنة كلمة هائلة انفرجت عنها شفتاك يا ابنتي ؟
ألسنت تتشوّفين إلى عودة أوديسيوس سالما
آمناً فيبطش بكل أعدائه ؟ إطمئني إذن ، ولتجرى
ولده تليماخوس حتى يصل سالماً آمناً هو الآخر
إلى أرض الوطن ، ولْيَبْشُرْ أعداؤه بالفشل »
ثم توجه بالخطاب إلى ولده هرمز ، رسول
الآلهة ، فقال :

« هرمز ! هلم يا بني إلى عروس الماء الشقراء
كاليبسو برسالاتي ؟ مرها أن ترسل أوديسيوس
على رمت^(١) وحده ، لا أنيس له من إنس ولا
آلهة ، فليأتني الأهوال الطوال حتى يصل إلى شيريه
أرض الفيشيين ، ملوك البحار وأصهار الآلهة ،
فليرودوه بسفينته وزاد وذخيرة من أحمال من
ذهب وديساج ، وبكل ما تشتهي نفسه مما يفوق
نصيبه الذي حصل عليه من أسلاب اليوم ، لو عاد
به غير منقوص إلى أرض الوطن ، ثم ليبجر سالماً
إلى إيثاكا ... بهذا قضت المقادير أن يؤوب ... وأن
يستعيد سلطانه وصورجانه ، وملكه وإوانه ؛

ويبقى بعد طول النأي خلانه »
وأصاح رسول الآلهة الأمين ، هرمز ، نعليه
الذهبيتين ، نخفتا به كالريح فوق السحاب وفي يمانه
عصاه السحرية المعجبية التي إن شاء داعب بها
الجفون فأغفت ، وإن شاء ردها إلى الصحو واليقظة ،
وما فتئ يرف بين السماء والماء ، ويدوم في ذاك
الفضاء كالمرنوق^(١) الذي يتوالب على أعراف الموج
يصيد ما يقتات به ، حتى كان فوق تلك الجزيرة
المنعزلة عن جميع العالم . ثم ما برح يرتق هنا ويرتق
هناك حتى انتهى إلى ذلك الكهف السحيق الذي
تأوى إليه عروس الماء الشقراء ذات الشعر
الكهرماني وقد جاست ثمة تفرد وتغنى وتعمل
دائبة في منسج أمامها ، ويدها تلتقفان الوشيمة^(٢)
الذهبية كما يخطف البرق ! والنار تتأجج في الموقد
بقربها وتتوهج ، وجمر الأرض والصنندل يعبق
ويتأرجح ، ويملاً نشره أركان الجزيرة وفجاجها ...
وقد بسقت أشجار الحور والسنديان عند مدخل
الكهف فغششته بظلال رائعة ، وظلمة رهيبة ؛
وصنمت جوارح الطير أوكاراً لها في الدوح الزاهب
في السماء ، وكانت^(٣) الحدأة يبيضها ، وقر الغداف
جنب صفاره ، وطفقت البومة ترسل في الآفاق
صفيرها ، وتناثرت فوق الشاطئ أفاحيص الطير من
كل نوع ؛ وامتدت الكروم عن يمين الكهف
وعن شماله مثقلة بالعناقيد ذوات السكر ؛ وتدفت
جداول أربعة من عيون كوثرية تسقي السندس
الجميل المنقش بأفواف الورد والبنفسج ... منظر

(١) بوزن طنبور وبوزن فردوس طائر مائي (القطاس)

(٢) المكوك

(٣) رقدت عليه

(١) خشب يضم إلى بعضه ويركب في البحر Raft

المنزلة من الأرض ، يحيط بها الملح من كل مكان حيث لا عباد ولا خلق يؤتون الزكاة ، ويقعون الصلاة ، ولا أثر لعبادة زيوس العظيم ! إنه جل جلاله ، يقول إنك تحتجزين هنا أنفاس مخلوقاته ، البطل الكبير الذي نزع عن بلاده إلى اليوم فقضى ثمة تسع سنين ثم أبحر عنها بعد سقوطها في العاصفة مع محاربي هيلاس الذين تفرقوا في البحر شذرة ذر ، فمنهم من غرق ومنهم من قتل ، ومنهم من وصل إلى بلاده ... إلا إياه ... فقد هلك كل رجاله ، وقذفه البحر فوق جزيرتك الذائبة ... چوف يأمرك أن ترديه ، ففي كتاب المقادير أنه لا يهلك هنا ... بل يعود إلى بلاده ويبقى فيها آله »

وَزُلْزَلَت كَالْيَسُوزَانِ لَا وَقَالَ تَجِيه : « ها ... الظلم والحسد ... دائما ... هذا دأبكم يا آلهة ... كم تأكل قلوبكم الغيرة كلما ضمت ربة إلى ذراعيها أحد بني الموتى ! وهل نسيتم يوم ترثتم عندما علقت ديانا ذات الأصابع الوردية هذا الفتى الجميل أوريون كيف دبّت الغيرة في قلب أبوللو ففكر هذا المكر السيء ، ودبر قتل الفتى بيدي حبيبته ديانا ؟ ^(١) هل نسيتم أيضا كيف أرسل أبوكم چوف إحدى صواعقه على أباسيون المسكين لأن سيرس ربة الربيع قد هويته وأخذته بين ذراعيها حين شغفها حباً ؟ ! كذلك أنتم معي اليوم ، وكذلك أنتم غيورون دائما ، فما أقساكم إذ تنفسون على

عجب ، وأنى منظر عجب يبعث الهجة والانشرح حتى في قلوب سكان السماء !

ووقف هرمنس يمتنع ناظره بسحر هذه الجنة ثم دلف إلى الكهف ، ولم يكن يسيرا على عروس الماء أن تعرف من هو ، وأنى إلهه خالد طرق بابها ، ولو أنها هي أيضا فرد من أسرة الخالدين ... ذلك لأن سكان السماء يكونون مثلنا أحيانا ، لا يعرف أحدهم جميع الآخرين ، لبعد الشقة ، ونأى الدار ، وانقطاع المزار ... ، وأرسل عينيه في كل شق من شقوق الكهف ، بيد أنه لم يقف لأوديسيوس على أثر ... فأنشئ ، وعم نحو الشاطئ واستوى على صخر عظيم نائى ، وشرع ينثر من عينيه الدموع الغوالي ، بطقى بها في القلب سميرا مرمديا يلزمه أبد الدهر ... وكأنما عرفت كالبيسو من هذه الآية أنه هرمنس ، فراحت تسائله ، إذ هي مستوية على عرشها الممرد العظيم :

« هرمنس ! يا صاحب العصا السحرية ، يا من طالما أحبيته وبجلته ، حدثني قيم أقبات ، وقد ندر ما قدمت إلى هنا . هلم فقل . سئل حاجتك فساأقضيها إن تكن في وسمى ... ولكن هلم أولا ولتؤد لك مراسم القرى وواجبات الضيافة ... هلم ! »

ومدّت عروس الماء سباطا حافلا بأشهى ألوان الطعام وصنوف الشراب ، وأقبل هرمنس فاغتنى وروى من هذه السائدة القدسية ، ثم توجه بالكلام فقال : « تسألين أيتها الربة قيم أقدمت ! ألا فاعلمى أننى ما أقدمت عن أمرى ، لكنه أبى ، سيد الأولب وكبير الآلهة ، هو الذى أرسلنى . إذ أية حاجة لآله في هذه القطعة

(١) تراجم الأوديسة التي أبدينا مهمة في الكلام عن هذه الأسطورة لذلك اضطررنا أن نتصرف قليلا اعتمادا على شرح الأستاذ جرير — وخلاصتها أن أبوللو علم بما بين أخته ديانا وأوريون من عشق فاستدرج ديانا وأخذ يباريها في الرماية — وكان أوريون يستعم في البحر فجلها تصوب سهمها إلى رأسه وهي لا تدري تقتله

حبايك الغالية في تنور من الآلام ، هلم ... هيا
إلى عمل مجيد .. أمامك الدوح العظيم والأبك الذاهب
اقطع منه ماشئت واصنع لنفسك رَمَثًا يحملك
فوق هذا العباب المتلاطم . وسأزودك بكل
ما يكفيك من طعام وشراب ؛ وسأمدك بأثواب
جديدة تقيك الحر والبرد ؛ وسأسخر لك الريح
تَهْدُ هُدُك إلى بلدك البعيد ... هذا قضاء من
آلهة السماء التي تقدر فتعدل ، وتقضى فلا يرد لها
قضاء . »

وتفزع أوديسيوس لهذه المفاجأة ثم قال :
« أوه يا عروس ! بل في الأمر سر تحاولين
إخفاءه عني ... أي رَمَثٍ يحملني في ذلك البحر
اللجى وأي ريح تسخرين من أجلى ؟ وإن السفينة
العظيمة لتسخر عبابه وهي لا تدرى أنسلم أم يكون
أهلها من المغرقين ؟ لا ... لن أفعل حتى تعطيني
موثقتك ، وحتى تقسم القسم العظيم ، أنك
لا تبطنين لي شرًا ولا أذى ! »

وتبسمت الربة الهيفاء ، وراحت تربت على
خديه وهي تقول :

« ويحك ! كيف تسمي بي الظن يا أوديسيوس ؟
أية حجة تملأ بها يديك على ما قلت ؟ ولكن اصغ
إلى ... أقسم لك بقسم الآلهة في الأرض والسماء
والدار الآخرة ... بالقسم العظيم الذي يقشعر لذكركه
كل شيء ... أنى لم أضمر لك فيما عرضت عليك
شرًا ولا أذى ... إن الذي تبكي من أجله ، أبكي
أما أضعاف ما تبكي من مثله ، فلقصد كنت ضرورة
من ضرورات حياتي هنا ، ولقد تعلق بك قلبي ،
وهامت بحبك نفسي ، وليس قلبي من صخر
فيحتمل البعد عنك ببله الأضرار بك »

حببي ؟ ! لقد أنقذته بنفسى من هذا اليم الذي
التقم سفينته بمن فيها حين شطرها أبوكم بسهمه
في عبثه من عبثاته ! حببي الذي أهواه من أعماق
وأفتديه بروحي ، والذي أمهد له حياة الخلود ...
ولكن ... والأسفاه ! كيف أطرده من عندي ؟
ويحى ! إن تكن هذه مشيئة زيوس فلا أحدثن
أوديسيوس ليرى نفسه ، إذ ليس عندي مركب
يأمن فيه غائلة هذا البحر المضطرب ، وإنى ناهضة
له ، ... »

وكلما همرض فأنذرها من غضبة سيد الأواب
وحضها أن تعمل على إبحار البطل

ورف همرض الرسول في لازورد السماء وانطلقت
عروس الماء تبحث في الجزيرة عن أوديسيوس ،
حتى أقيته فوق صخرة ساهما واجما ، تفري قلبه
الهواجس ، ويعبث به بحال الأمانى ، وقد انهمرت
فوق خديه عبرات حرار ! واللحظات تذل
فتسقط من حياته في ظلام اليأس كأوراق الخريف
وقد ملّ هذا المقام الطويل البائس في جوار
عروس الماء ! تلك التي تلح عليه حبها البارد ،
وتقسره على أن يقضى لياليه بجائنها على فراش
واحد في ذلك الكهف السحيق ... وكلما فكر في
وطنه ، ونظر إلى الموج المتوالب في أفق اليم ،
وعرف أن لا قدرة له عليه ... بكى وأن ، وتوجع
وتصدع ، وأرسل في لانهاية الماء والسماء آهات
وآهات ... »

واقتربت منه عروس الماء في رفق وحذب ،
وقالت له :

« أيها الشمس لا تنتحب هكذا ، ولا تعهر

بشفوفها الرقيقة الثلجية الناصعة التي كأنما نسجت من نسبات الصباح المطرى ، وراحت تخطر فيمناة ريانة ، وقد انتشحت حول وسطها النجيل بقرطق جميل ، وألقت على رأسها بخمار صفيق رقيق ؛ وقدمت إليه فأساً ذات حدين أحدها كالساطور ، ركبت فيها يد من خشب الزيتون المتين ، ثم إزميلاً حاداً مرهفاً ... وسارت بين يديه حتى كانا عند غابة عظيمة تُخْرِفُ ، لاجبة شاحبة ، بسقت فيها أشجار الحور والسنديان والشريين^(١) ، وتركته ثمة وعادت أدراجها إلى كهفها ...

ولم يهدأ للبطل المسكين بال ، بل شرع من فوره يقطع كل أيكّة عظيمة حتى اجتث عشرين من أكبر دوح الغابة ... ثم أقبلت كاليبسو وقد حملت إليه آلات ساعدته على تشذيب الشجر ، واستطاع بمد لآي أن يضم بعض الجدوع الى بعض ثم كـلّـبها بكلاّبات كبار ، وأفرغ في وسط الرمث له ولما يحمل مكاناً أميناً ، كأحسن ما يصنع السفانون ... ودعم ذلك جميعاً بألواح ودُسر ، وصنع قلعاً وجعل في القلاع شراعاً ، ثم سوى السكان مكانه ، وجعل في الباطن سبارة^(٢) كبيرة تقى الرمث الانقلاب ، ولم ينس أن يجدل جوانبه بفروع وأغصان تزيد في قوته وتضاعف من مُنته . وأنتم صنع مركبه في أربعة أيام ، وأنزله الى البحر في الخامس ؛ ثم أدخلته عروس الماء حمامها فغسلته وضمخته بالطيوب والعطور ، وخلعت عليه حلة من ديباج ثمين وزودته برقين من خمر وماء ، وأمدته بشيء كثير من طعام وأتواب

(١) Fir ولم نجد لهذه اللفظة أثراً في اللسان والقاموس

(٢) أو صبرة قطعة حجر كبيرة يتزن بها المركب في البحر وتسمى في مصر (صابورة)

وانطلقتا سوياً إلى الكهف ، وجلس أوديسيوس فوق المتكا الذي كان يجلس عليه هرمن منذ هنيهة ، ثم أقبل جوارى الماء يحمان شيئاً كثيراً من اللحم والشراب فأكلوا ورويا ؛ ثم شرعت كاليبسو تحدّثه وتقول :

« أهكذا يا ابن ليرتيس العظيم ، أيها الحكيم الصناع ، لانفتأ نحن إلى وطنك وتمتزم الرحيل اليه ؛ أنا عذيرك يا أوديسيوس ... فوداعاً ! ولكن هل فكرت أيها الرجل في الأهوال الجسام التي تخرط قتادها قبل أن تصل إلى بلادك ؟ أليس خيراً لك أن تظل إلى جانبي ، وتقاسمني كهفي ، فتصبح من الخالدين ... وتذسى هذا الجمال الفاني الذي لا ينفك يصيبك ويسببك ، والذي أحسب جمالي وفتنتي لا يقان عنه سحراً إن لم يزيدا عليه فتونا ؟ ! »

فيجيبها أوديسيوس الحكيم : « أيها الربة الخوفة ! هوّني حفيظتك ! أنا أعلم أن بنلوي العزيزة لا ترن من جمالك وفتونك مثقالاً ، لأنها هالكة ، ولأنك من الخالدين . بيد أن الذي يصيبني هو وطني ... وطني الحبيب الذي أحن إليه وأهيم به ، وفي سبيل العودة إليه لن يخيفني هذا اللجج المتلاطم ، فلقد بلوت الأعاصير في البر والبحر ؛ في أخبار الممعة ؛ وفي الفلك تحت كل شكل الزوبعة ... إلى إلى يا خطوب ، وأقدي بكل حولك يارزايا ... »

وتوارت الشمس بالحجاب ، وأرخى الليل سدوله فوق الجزيرة ، ونامت الربة في سريرها الوثير وبين ذراعيها حبيبتها تسمه وتضمه ، وتحسه وتأنسه ... حتى إذا نضرت بالورد أورورا جبين المشرق ، هب الالغان وتدفرا ؛ هذا بشوبه الحسن ، وتلك

وودع عروس السماء المحزونة ؛ وجلس عند السكان ، ثم دفع الرمث في البحر ، وابتمد رويداً رويداً

وكان قلبه يفيض بالبشر ، وصدره يعتلى بالانشراح ... وظل يجري به الفلك الصغير سبعة عشر يوماً ، وعيناه في كل ليل ما ترمان عن الثريا في علياء السماء ، وما تفتران تنظران الى نجوم الدب الأكبر التي تقف للجبار^(١) بالمرصاد ، كما علمته عروس الماء قبل أن يرح ، أن يجعل هذا النجم الى شماله أبداً ثم بدت جبال فيششيا الشم كأنها دروع مسرودة فوق صدر الأرض الشاحبة ... ولكن ! وأسفا ! ... لقد كان الجبار نبتيون ثانياً عنانه من سوليا^(٢) ، فلهج أوديسيوس فوق رمته بتوائب على هام الموج ، ويقترب من الشاطئ ، فينجو إلى الأبد من بطشه ... وثارت في نفس نبتيون — إله البحار ، وأعدى أعداء أوديسيوس — ثورة من الغضب ، وظل بملك هذه السمات في نفسه من فوق بطاح إثيوبيا^(٣) :

« وى ! أو قد تبدت مقادير الآلهة إذن ، وتحركت فيهم عواطف الحنان من أجل هذا الرجل أوديسيوس ، فقضوا فيه ما قضوا لأنهم يسكنون السماء ، ولم يبالوا بي لأنى أسكن الأرض في إثيوبيا ؟ ... إنه يرى شاطئ فيشيا قيد وثبات منه وهو إذا قفز إليه أصبح بنجوة من هموم تترصده في كل موجة من موج هذا اليم ... ولكن ... لا ... لألهبته بألف سوط عذاب قبل أن يصل الى البر ... »

ثم إنه لاعب السحاب بصولجانه ذى الشعب الثلاث فانهقدت منه ظلمات في أرجاء السماء ، وطفق بهد يهز أعماق البحر فهاج وماج ، وتلاطم بالأمواج ، وصاح صبيحة بريح الشرنين ورياح الغربيين فاجتمعت إليه من كل مكان سحيق ... ثم هبت ريح الشمال الثلجية اللافحة فانطفأ لألاء النهار ، وناء الليل فجأة ، وطفى العباب وشابت نواصيه بالثبيج ، وتناوح الوج الغضوب حول الرمث ، وهلع فؤاد أوديسيوس وأصبح قلبه فارغاً ، وطاشت أحلامه وذابت أمانيه العذاب ، وراح يحدث نفسه هكذا : « ياتعماسى ! أى مقدار قاس يترصدنى ؟ ! لقد أنذرتنى ربة السماء مغبة هذه الرحلة الهوجاء في البحر فما صدقتها ، وتنبأت عن الشدائد التي تعتور طريقى إلى الوطن ، فها هى ذى تنحقق ! أية أعاصير هوج وأى موج ينتفض من الأعماق ساط جوف على هذا البحر ! بعد لحظة أغوص في ظلمة هذه القبور التي يشق عنها الموج ! ألا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً تحت أسوار اليوم ، يوم أوشكت أن أقضى ثلاثاً في سبيل إنقاذ الأتريدس^(١) أو يوم أوشكت أن أصرع برماح الطرواديين إذ أدفع جوعهم عن جثة أخيل ! ! أجل ! لو أننى مت ثمة لأقيمت من أجل الطقوس الجنائزية ، وأديت لى الشعائر الدينية ، وذرف فوق قبرى كل يونانى أغلى دموعه وأعز عثراته . وتفاديت هذه الموتة المجهولة التي تكاد تلتقمنى ! »

ثم كانت الطامة ... فان موجة كالطود فجأته ... فبعثت الرمث ... وأفلت مقبض السكان من يدي أوديسيوس ، فانتثر في اللجة ، ثم غاص في أعماقها ، وعبثا حاول أن يطفو ... لأن الرياح تكالبت من

(١) الجوزاء Orion

(٢) إحدى مقاطعات آسيا الصغرى وكانت تدعى بيسيديا

(٣) هكذا في الأصل

بشرط ألا تنظر إليه وهو يسقط في الماء »
وسلمت إليه زئارها الموعود ، ثم غاصت في
الماء ، وبقي أوديسيوس مكانه في حيرة شديدة
وحزن عميق ؛ ثم أفاق من غشيته ، وجعل يهرف
هكذا : « أوه ! ترى ؟ أذاك شرك آخر تدبره
الآلهة لي ؟ ولكن لا ... لن أبرح مقبلاً فوق
الرمث ، فالبر بعيد ، ولأظل مكافئ مادامت الجذوع
مكبسة هكذا ، فإذا حطمتها يد الحدثان فلأفعمان
كما أشار الآلهة الذي كان يكلمني منذ لحظة ... »
وما كاد يفرغ حتى أرسل عليه نيتيون موجة
جارفة حطمت رمته ، وتركته عالقاً بأحد الألواح ...
وأمرع أوديسيوس نخلع الرداء الجميل الذي باجى
الذي خلتمته عليه كاليسو ، ولف الزئار الموعود
حول صدره ، وقذف بنفسه في الماء ... وراح
يسبح !

وكان نيتيون الجبار يرى بعينه ، ويشفى
حردّه ، ويقول في نفسه : « ذُقْ يا أوديسيوس
وبال أمرك في هذا الطوفان ، قبل أن تصل جبالك
بجبال الشعب الذي هو حبيب الآلهة ، وسترى
ثمة هل تنتهي آلامك ! »

وحث مطيئه حتى وصل (إيجّه) حيث
يشرف قصره النيف

وكانت ميترفا تشهد الكفاح الهائل بين
أوديسيوس وبين اليم ، فاطلمت من عليائها ،
وداعبت الرياح حتى استنامت وونت ، ثم أطلقت
بوريس ، ربح الصبا الشمالى الكريم فجري^(١)
رخاءً ، يدفع أمامه البطل العظيم الذى ظل يناضل
الموت وبصرعه يومين أطول من دهر ، وليلتين

(١) الضمير عائد على بوريس وهو مذكور

كل مكان ، وكلما نجا من موجة فغرت له فاهها
أخرى ... ثم حدثت المعجزة ... فقد وسمه بعد
لأى وبعد عناء شديد أن يدفع نفسه دفعة اليأس
إلى السطح ، وأن يلا رثيته المنهوكتين بنفسه من
الهواء ، كانت تخرج بالماء الأجاج المتصعب من
جبينه ، حتى لأوشك أن يغص بها ... لولا أن
لطفت به الصدفة ، فرأى الرمث قريباً منه ، وقد
انزعجت المصافة قلاعته وشراعه ، فسبح إليه
وأمسك به ، ثم استوى عليه ، وتركه الموح تلعب
به واحدة وتعبث به أخرى ، وتجتمع عليه الرياح
عن شماله وبعينه ، ومن خلفه وقدامه ، حتى قبض
له القدر عروس الماء (إينو) ابنة قدموس ، التى
كانت تعيش في البر وتعرف فيه بهذا الاسم ، والتى
تخذت اسم (ليوكوتيا) بعد أن نزات إلى البحر
وعلقها أحد الآلهة فوهبها الخلود ... لقد تفجرت
في قلبها شأبيب الرحمة من أجل أوديسيوس لما
رأته في هذا الروع الذى ليس كمثل روع ، فسجرت
نفسها ووثبت على الرمث في صورة غطاس الماء ،
ثم قالت له : « ويحك أيها البائس ! فيم أثرت
غضبة نيتيون عليك حتى ليتبعك مرباً في شعاب
البحر ، ويصب عليك كل تلك الرزايا ... ؟ على أننى
أنصح لك أن تدع هذا الرمث ، تتدافعه الرياح
حيث تشاء ، ثم تخلع ملابسك ، وتقفز في الماء ،
وتسبح بقوة وجلد حتى تصل إلى شطآن فيشيا ،
حيث تسلم بنفسك ، وتكون بئامن من بطش
هذا الجبار . خذ ، هالك زئاراً من حرير من
حياكة السماء ، لفه تحت صدرك ، فانه يجعلك
بئامن حتى من مجرد التفكير في الموت ؛ فإذا وصلت
سالماً إلى الشاطئ ، فارمه بكل ما أوتيت من قوة
بعيداً في البحر ، وأدر وجهك بمجرد أن تفعل ،

فقدفه في مسيل من مسایل الماء المنتشرة على الشاطئ ، وعندها ، ظن أوديسيوس أنه بنجوة لولا تيار النهر الذي كاد يسلمه بدوره المحيط ، مما جعله يضرع لرب النهر ويبتهل ... ويدعو من أعماق قلبه ويصلي ، حتى استجاب الرب الرحيم لصلاته ، فكسر حدة التيار ، وفلّ من غرب الماء واستطاع البائس المهوك أن يصل الى إحدى العدوتين واهياً متهالكاً محطاً .. فانظر ح على الثرى يقبله .. ويلهث ويقول :

« ويح نفسي ماذا تبتهن يا آلام ! لقد أقبل الليل وأنا عبي مصدّع ، ولا قبل لهذه البقية من حشاشتي بطل العشاء وصقيع الفجر ... فلو أنني استطعت أن أتسلق هذا الحدور فالوذ بأجرة من هذه الغابة ! ولكن ! وى ! أى وحش ضار يغتذى بلحمي ثمة ؟ »

بيد أنه توقف في الجبل حتى أوشك أن يضرب في الغابة ؛ ثم كان بين زيتونتين إحداها مشمرة ، والأخرى عقيم ؛ كل منهما لفاء شجراء حتى لا تنفذ الريح بينهما ، ولا تنسرق أشعة الشمس خلالها ، ولا الماء بواصل إلى من استندى بهما هناك ... وجد أوديسيوس مأمنه ؛ فراح يهد الأرض ، ويللم ما استطاع من قش ويحطب حتى صنع لنفسه منامة تكفي اثنين غيره ، من الضاربين الشردين في الأرض ، ودعم حفافها بفروع الشجر ... ثم أسلم عينيه انوم هادى عميق ، مكبته ميتة في كلتا مقلتيه

فلله ما كان أروع غاراً في هذا السقط من القش ، كشملة من زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يمتز بها ربنى شاب في قرار مكين^(١)

(يتبع) ربنى خشية

أحلك من غيابة جب ، حتى إذا غابت أورورا في اليوم الثالث ، استطاع أن يرى الشاطئ على صرعى البصر ، من فوق موجة عالية

ما أحلى الأمل الذى يحيا بعد يأس ! لقد كان ينظر أوديسيوس إلى التلال والجبال القريبة ، والغابة الناعمة في أحياها ، كما ينظر الأطفال الأبرار إلى أب لهم أنهكتهم العلة ... ثم عمائل للشفاء بعد تسليم وقنوط !

وتحسس الأرض بقدميه ... ولكن ... وأسفا ! الأعماق الهائلة ! والصخور والأواذى ! والموج الذى يرتطم بأقدام الجبال فيرغى ويربد ... ! لم يكن بهذه الجهة صرفاً ، ولم تكن تجوس خلالها سفن ... ولقد ظل أوديسيوس يكافح ويكافح ... حتى غم على قلبه ، وكاد يتغشاه طائف من الخور ، بعد أمل أكيد !

وجاشت الوسوس في قلبه ، وطفق يحدث نفسه حديث الهلك في هذه اللجة الرجراج ... وكان أخوف ما يخشاه أن يدفعه الموج على نتوء الصخر فيحطمه ، أو أن تلمحه أمفريت ، زوج نيتيون ، عدوه اللدود ، إله البحر ، فتسلط عليه من وحش الماء ما يلقفه ، أو يقذف به الى أعماق الأعماق ... كرة أخرى

وبينا هو في بحر من ماء ومن هواجس ، إذا موجة هائلة يضطرب بها اليم فتدفعه في قوة وعنف الى الشاطئ ذى النتوء والنوى فتكاد تدق عنقه ، وتذرو عظامه ، لولا أن قبض بذراعيه الجبارتين على حافة صخرة بارزة ... وثمة ظل معلقاً حتى أقبل جبل آخر من موج البحر فاحتمله الى الأعماق كأنه أحد سراطين الماء ... وجاهد المسكين ثمانية وثلاثة حتى تدافع الموج من خلفه

(١) كانت النار في الزمن القديم أغلى ما يستتر به الناس

الأرض فيشير غبارها ، وكان القمر في كبد السماء الصافية ، يرسل أشعته الفضية على الرجل النائم . ولم يكن هنالك أحد سوانا ، أنا والنائم التمل الذي لم يكن يشعر بوجودي وهو يتوسد الحجر القاسي كأنه على فراش وثير

وشمرت بأن حال هذا الرجل زادت في آلامي ، فتمكنت من مبارحة مكاني الذي ما كنت لأرحه ، وما كنت لأستفيد من وجودي به لأطرق الباب حتى ولو أغربت على ذلك بملاحة وتاج ، وذهبت إلى قرب هذا الرجل النائم أنفوس فيه وأقول في نفسي :

ما أعرق نومه ، لا ريب أن رقاد هذا الرجل لا يقلقه شيء من الأحلام ، ولعل زوجته تفتح في هذه الساعة لجار لها باب السكن الوضيع . إن أثواب هذا الانسان عبارة عن أطهار بالية ، وقد نحل خدها وتجمدت يدها ، فمن يكون هذا الخلق إن لم يكن واحداً ممن لا يجدون كل يوم كسرة خبز يقتاتون بها ، فهو إن نهض غداً من نومه ستعاوده جميع همومه وبجتاحه جميع مصائبه ، ولكنه هذا المساء كان يملك بضعة دراهمات مكنته من الدخول إلى حانة قابتاع النسيان لأوجاعه . لقد ربح هذا الرجل في مدى أسبوع ما أماله ليلة رقاد هنيء . ولعله حرم بذلك أطفاله عشاء ليلتهم ، ولكنه الآن بمنأى من آلامه ، فلرفيقته أن تحدهه ولصديقه أن يلج مسكنه الحقير كاللص ، بل لي أنا إذا شئت أن أضرب على كتفه لأقول له : إن عدواً يهدد حياتك ، وإن النيران تلتهم مسكنك ، فانه لينقلب على جنبه الآخر ويعود مستغرقاً في نومه

وذهبت أذرع الشارع بخطوات واسعة قائلاً : وأنا ... وأنا ... وأنا المحروم لذة النوم ، وفي جبتي

من أعماق النفوس



استغفرت في العصور

والفريد روى موسى

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل التاسع

وكنت وصلت إلى أشد الهاوى ظلاماً عندما دفعني اليأس وثورة الشباب إلى فعلة قررت اتجاه حياتي

كنت كتبت إلى عشيقتي أنني لا أريد أن أراها بعد ، فقامت بما عاهدت النفس عليه ؛ غير أنني ما امتنعت من تمضية الليالي تحت نافذتها جالساً على مقعد أمام بابها لأراها تلوح لي كالخيال من حين إلى حين بين منفرجات ستائرهما

وبينما كنت في إحدى الليالي جالساً على عادي وقد تملك الألم كل مشاعري ، رأيت عاملاً يسير على الطريق في ساعة متأخرة وهو يترنح سكرًا ويتمتم بكلمات لا تفهم تتخللها هتافات نشوة وجبور . ووقف هذا العامل بقتة وأطلق صوته مترنماً عاود السير ورجلاه تقودانه تارة إلى يمين الطريق وتارة إلى شمالها حتى بلغ مقعداً موجهاً لمقعدى أمام بيت آخر فانطرح عليه ، وبعد أن قلب برهة على ساعديه استغرق في الكرى

وكان الشارع مقفراً والهواء الجاف يهب على

الحانات ، فنار ثأرى وقات فى نفسى لمانى ان أفوز
حتى بهذه التعزية ، فسكنت أترأض من باب
دكان إلى باب دكان آخر هاتفاً :
- أريد خمرآ .. أريد خمرآ ..

واهتديت أخيراً إلى حانة مفتوحة ، فطلبت
زجاجه خمر وجلست أكرعها دفعة واحدة دون
التفات إلى نوعها ، وانبعت الأولى بثانية وبثالثة ،
فسكنت أقاب الكأس تلوالكأس مكرهاً ، كمرىض
بتجرع دواء فرض عليه فرضاً لأنقاذ حياته .

وما مضت برهة حتى شمعت بأبخرة هذا
الشراب - الذى كان ولا شك مفسوشاً - تتصاعد
إلى رأسى وتودئى السكر فجأة ، فيتوالى على ذهنى
الصفاء والاضطراب ، حتى فقدت قوة التفكير ،
فشخصت بإبصارى إلى مافوق كأنى أودع شعورى
بنفسى ، وتراخى ساعدى على الخوان فلم أستطع
تحرىكهما . وعندئذ لاحظت أننى لم أكن منفرداً
فى الحانة إذ رأيت فى طرفها كتلة رجال تجلى القبح
فى وجوههم الشاحبة ، وتمالت النبرات الشاذة فى
أصواتهم ، وكنت أرى من أثوابهم أنهم ليسوا من
العامة ولا من متوسطى الحال وكل ما فيهم يدل
على أنهم من أحقر الطبقات ، من الطبقة التى
لا مكانة لها ولا ثروة حتى ولا مهنة سوى مهنة
البطالة الدنيئة ، من الطبقة التى لا تنتمى إلى الفقراء
ولا إلى الأغنياء وقد انتمى إليها بؤس الفقر
ورذيلة الغنى

وكان بين أيدي هذه الجماعة ورق قدر العيسر ،
وكان الخلاف قائماً بينهم فيخنقون أصواتهم فى
مجادلاتهم ؛ وكان بينهم فتاة غضة الصبا ، بهيمة
الطلعة ترتدى أثواباً نظيفة ، وليس فى مظهرها ما يشبه
من حولها من الناس سوى صوتها الأبح الذى كان

من المال ما يكفى لتتوهم هذا الرجل سنة كاملة ،
يسودنى الغرور بل الجنون فأترفع عن دخول
الحانات ، وأتجاهل أن التمساء يدخلونها ليخرجوا
بالسادة من بين جدرانها

يا لله ! إن عناقيد من السكرمة تعصرها الأقدام
كافية لتبديد أحلك الهموم ، ولتقطيع الأشرار التى
تعمدها روح الشر على مساكننا . إننا نعمل كالنساء
ونألم كالشهداء ، فيخيل إلينا حين تساورنا المصائب
أن العالم قد تهديم على رؤوسنا فننطرح منتحبين كما
انطرح آدم أمام الباب الموصد يبكي النعيم المفقود ،
فى حين أنه ليس علينا إلا أن نمد يدنا إلى الكأس
لأطفاء لهب أحشائنا ، وشفاء أوسع جرح فتحتته
فيها الحياة . ما أحقر هذه الهموم التى تداوى برشفة
من مثل هذا الدواء !

إننا لنعجب من أن العناية الإلهية لا ترسل
جميع ملائكتها لتنصت لآهاتنا ، وما العناية
بحاجة إلى إرسال طغام أملاكها إلينا ، فهى قد
رأت أوجاعنا وما خفيت عنها شهواتنا ، وغرور
روحنا الساقطة وما يحيق بنا من غمرات الآلام
فاكتفت بأن تنبت ثمرة صغيرة سوداء تتدلى على
جوانب طريقنا .

إذا كان هذا الرجل ينام ملء جفونه فلماذا
لا أنام أنا مثله ملء جفونى

لقد يكون ضراحي متوسداً فراش خليلتى الآن
فيخرج منه عند الفجر ، وتشيعه هى حتى الباب
فينظران إلى وأما أعطى فى نوى على هذا المقعد فلا
أنتبه لصوت قبلاهما ؛ وإذا ما ضربانى على كتفى
فأننى أقاب على جنبى الآخر واستمر فى الرقاد
وتحكم المرح فى فذهبت مفتشاً عن حانة
أستقر فيها ، وكان نصف الليل مرّاً وأقفلت أكثر

مستسلم لليأس ، قد مرت بسرعة حسبت معها
أننى أشاهد حلمًا ، فاضطربت أفكاري حتى حسبتنى
جننت أو استولت على قوة مجهولة

وصحت بالفتاة فجأة : من أنت ، وما تريد
منى ؟ وأين عرفتنى من قبل ؟ من كلفك مسح
دموعى ؟ أهذه واجبات مهنتك ؟ وهل تظنين أننى
أرضى بك ؟ . . . إننى إن أمسك بأطراف أناملى .
ما ذا تفعلين هنا . ؟ أجيبي ، أملاً تطلبين ؟ . وبأى
نمى تبسمين إشفافك . ؟

ونهضت طالباً الخروج ؛ ولسكنى شعرت
بأن رجلى لا تقدران على حملى ؛ وأن غشاوة أسدات
على عيني ، ونفدت قواى فارتيمت على مقدم مستطيل
عثرت به

أخذت الفتاة بيدي وقالت : أنت متألم . . .
لقد شربت كما يشرب الأطفال أمثالك فما عرفت
ماذا فعلت . . انتظر على هذا المقعد إلى أن تمر
عربة . . قل لى عنوان أمك لأرسلك إليها
ثم تضاحكت قائلة : إذهب إلى بيتك ما دمت
قبيحة فى نظرك . . .

والتفت إليها وهى تتكلم ، وما أعلم إذا كان
السكر أرانى مارأيت ولم أتبين إذا كان ضلالى سبق
هداى أم هداى سبق الضلال ، فرأيت فى وجهها
صورة لوجه خليلتى ، وعند ذلك شعرت بصقيع
الجليد فى أعضائى

إن الانسان ليسمر أحياناً بارتماش فى شعير
رأسه ، ويقول السذج إن ذلك دليل على مرور
ملاك الموت ، وما كان الموت قد مر على رأسى بل
هو داء العصر ، وما كانت هذه الفتاة إلا ذلك الداء
بمعينه تجسم فيها شاحباً هائلاً بنسبرات الصوت
الأصح وجاء يجالسنى فى زاوية من هذه الحانة

يتعالى كأنه صوت منادٍ امتهن المنادة فى الأسواق
ستين سنة . وحدقت هذه الفتاة فى ، وقد أدهشها
ولا ريب وجودى فى هذه الحانة ، وأنا مرتد
ما أرتديه من أنيق الأثواب ؛ وما لبثت أن تقدمت
نحو مجلسى وعند ما رفعت الزجاجات الثلاث عن
الخوان ، ورأيتها فارغة افتتت نغرها عن درة نصييد
فقبضت على يدها ورجوتها أن تجلس قربى فجلست
مسرورة ، وطلبت أن يحضر الخادم لها المشاء .

وحدقت فى الفتاة صامتاً وعينائى مغرورتان
بالدموع ؛ فسألتنى عما يحزننى ، وما كنت قادراً
على إيراد الجواب ، فهزئت رأسى كأننى أريد أن
أطلق القطرات الحائرات من مدامى ، فتساقطت
على خدى . وأدركت الفتاة أننى أكتهم أصراً
مؤلماً فما حاولت اكتشافه ، بل أخرجت مندبها
وهى تتناول طعامها لتره على وجهى أنا فأنا

وكان فى هذه الصبية شىء لا يحدد إلا بأنه مزيج
من أحسن الأشياء وألطفها ؛ وقد تغافل المطف
فى فخشاها ؛ فوجت حائراً فى تقديرها . ولو أنها
كانت التقت بى فى شارع ومدت يدها إلى
لتراجعت عنها مشمئزاً ؛ غير أننى وأنا فى حالتى كنت
أرى من الفرائب أن تتقدم نحوى فتاة ما رأيتها
من قبل فتجلس صامتة إلى خوانى وتتناول طعامها
أمامى ثم تحجف مدامى بمندبها ؛ لذلك بت أمامها
واجماً نائراً مخلوباً

وسمعت صاحب الحانة يسألها عما إذا كان لها
معرفة بى . فأجابته إيجاباً وطلبت ألا يتدخل أحد
فى أمرى . وبعد قليل من الزمن انصرف اللاعبون
وأقفل صاحب الحانة أبوابها من الداخل ثم انسحب
إلى غرفته الخاصة ، وهكذا بقيت لوحدى مع الفتاة
وكانت هذه الحوادث التى أثرتها بما فعلت وأنا

الفصل العاشر

وما كدت ألحظ مشابهة هذه المرأة لمشيقتي حتى اجتاحت دماغي فكرة فظيمة لم أجد بداً من تنفيذها

وكانت خلياتي في أوائل عهد غرامنا تأتي خلصة إلى غرفتي للاجتماع بي ، فكنت أملاً هذه الغرفة أزهاراً وأضرم النار في الموقد ، وأعد العشاء ، وما كنت أغفل عن تزيين السرير وإعداده للحبيبة المنتظرة

ولكم شخصت الى هذه الحبيبة الساعات الطوال وهي جالسة على المقعد أمام المرأة ، وكلانا صامت يتناجى الآخر بخفقتان قواده ، فكنت أراها كما لكة من عالم الجن تحول الى جنسة هذا المسكن الصغير حيث أرقّت كثيراً من الدموع . ولكم تألقت بروعة جمالها بين هذه الجدران الأربعة الحزينة والرياش القديم ، وقد تبعثرت حولها كتبتي وأثوابي

وكان تذكار هذه الليالي لا يفارقتي لحظة منذ فقدت بهجتها ، فكانت كتبتي وجدرانى تناجيني بهذه الذكرى وأما مسهد مفجوع فتزهقنى حتى أذهب هارباً منها الى الشارع نافراً من سريري الذى لم أكن ألتجأ إليه إلا لأذرف عليه الدموع

اقتدت هذه الصبية الى غرفتي وأجلستها على المقعد ، محولاً ظهرها نحوى وأبقيتها عليه وهي نصف عارية ، ثم شرعت أرتب كل ما حولها على النمط الذى كنت اخترته فى أعماق الليالي ارتساماً فى خيالى إن لذكريات السعادة صورة واحدة تغلب

على سائر صورها ، فهي خيال يوم أو ساعة فاقت سواها فى جمال المؤثرات فتبقى كأنها الأنموذج

المستقر ، ولكل إنسان فى حياته ساعة وقف فيها صارخاً : إضرب سهماً مذهباً فى عجلتك الدائرة ، أيها الزمان

وبعد أن تم ترتيب الغرفة طبقاً لما ذكرت أوقدت ناراً ، وجالست القرفصاء أكرع كأس يأسى حتى الثمالة ، وأسهر صميم قوادي لأشهر بتملله وانقباضه ، وكنت أستمع فى ذهني أنشودة تيرولية كانت تغنى خلياتي بها وهي :

كنت فى روض دلالي زهرة فيها خرام أحرق العشق جمالى هكذا يقضى الغرام وكانت نبرات هذه الأنشودة ترن فى أذنى كأنها صرخة تتعالى فى قفار قلبي ، فأناجى نفسى قائلاً : هذه هي سعادة الانسان . هذه هي جنيتى أصبحت صبية من بنات الواخير ، وهل خلياتي أفضل منها ؟ هذه ثمالة الكوثر الذى تحتسيه ، هذه جيفة الغرام ...

وأطلقت الفتاة الشقية صوتها بالانشاد إذ سمعتنى أنتم بأنشادى ، فعلت وجهى صفرة الموت إذ سمعت عواطفي نفسها تنشد هذا الصوت الأجلش المتعالى من فم فتاة تشبه من أحببت ، فكان هذا الصوت هو الفحشاء تغرغر فى صدر نورتي فيه أزاهر الشباب ... وخيل إلى أن صوت خلياتي قد أصبح منذ سقوطها شبيهاً بهذا الصوت ، وخطر ببالى ما يحكى عن (فوست) من أنه رأى قارة حمراء تنشب من فم ساحرة عارية كان يحاصرها فى ليلة راقصة . فصرخت بالفتاة : اسكتي ، وهرعت إليها فترامت ضاحكة على سريري ، فانطرحت بدورى إلى جانبها وإذا بي أرى جسدى كتمثال ممدد على لوح مدفون

أى ، رجال هذا الزمان ، المتسارعين وراء

قيمتها ، اذكروا انكم قد تمسقون شيئاً بالرغم من
صقيع عواطفكم ، ولقد ينقطع عرق في أعماق
أحشائكم فتصرخون صراخاً يشبه أنين المتألمين .
لقد يجيء يوم تشردون فيه إلى الأزقة الوحلة عندما
تطالبون ملائكتكم لتستنزفوا فيها قواكم البائرة
فلا تجدون من المال ما يبلغكم أيها ، فتذهبون
بنظراتكم الحائرة ووجوهكم الشاحبة المحددة
لتنطرحوا على مقعد منفرد تحت ظلام الليل

أيها الأنانيون المنتصبون كتماثيل من صرصر ،
التفردون باخضاع كل شيء لتفكيركم ، أنتم الباهون
بترفكم عن اليأس وبمصمتكم في حساب الأرقام ،
إذا ما سطا اليأس عليكم وأخطأتم في حسابكم يوم
يزعزعكم الافلاس ، تذكروا (أبلار) وقد اختطف
القضاء منه (هلوز) التي باع هيأه بها ما لا يبلغ
مشاركه حبكم لجيادكم ودنائيركم وخيالاتكم فإن هذا
الماشق قد فقد بافترافه عمن يعبد ما لا يمكن لكم
أن تفقدوه أنتم ، حتى وما لا يمكن أن يفقده أميركم
إبليس لو عاد إلى الجنة ليسقط منها مرة أخرى .

ذلك لأن أبلار قد أحب هلوز حباً لا تقرأونه في
أية جريدة تتصفحونها ولا يلوح حتى كخيال لنسائكم
وبنائتكم لا في كتبنا ولا على مسارحنا — ، ذلك
لأن هذا الماشق أمضى نصف حياته ياقى قبلاته على
جبين الحبيبة الطاهر وهو يلقيها الزامير والأناشيد ،
ذلك لأنه لم يكن له سواها على الأرض

تذكروا هذا المبلى واعلموا أن الله قد أرسل
إلى قلبه العزاء والسلوان . فإذا ما تذكركم هذا
الماشق والمحنة التي حلت به فإن كفر قولتير
ودعابات كوريه تفقد معناها في نظركم فتعلمون أن
العقل يمكنه أن يشقى الانسان من أوهامه ولكنه

لملائكتكم في المرافص والمسارح ، إنكم ستمودون في
آخر الليل إلى مساكنكم لتقرأوا قبل استسلامكم
للوسن أشياء من كفر الشيخ فولتير أو مداعبات
كوريه ، أو خطب مجلسنا النيابي عن الاقتصاد
السياسي ، فأجيزوا لي أن أوجه إليكم هذا الرجاء ،
ولكل منكم ما يروح به عن نفسه رائحة هذه
النبذة السامة التي زرعها العقل في قلب حضارتنا :
إذا ما وقع هذا الكتاب الوضيع صدفه بين أيديكم
فلا توجهوا إليه بسمة الاحتقار ولا ترفعوا أكتافكم
مستهزئين . لا تقولوا وأنتم تخالون أنفسكم في حرز
أمين إن واضح هذه الفصول مصاب بداء الأوهام ،
ولا تظنوا أن العقل أو ما تعتبرونه عقلاً هو خير
ما في الانسان من قوى ، وإن حقائق الحياة قائمة على
حركة المضاربات المالية وورق الميسر ولذيد الخمر
وصحة الجسم وعدم المبالاة بالسوى ، وعلى فراش وثير
تمددون عليه عضلات توترت بالشبهوات تحت
جلد ناعم يمتق بالمطور

لا تغفروا ، فقد تهب يوماً عاصفة هوجاء على
حياتكم المهادنة ، ولقد ترسل العناية الإلهية صريراً
على الأدواح الباسقة التي تسقونها من مياه النسيان
أراكدة . لستم بآمن من عثرات الآمال فإن في
أعماق عيونكم دموعاً ، أيها المتحصنون بالجود :
وأنا أقول لكم إنكم معرضون لخيانة خيالاتكم وما
تهتمون لهذه الخيانة اهتمامكم لوت أحد جيادكم ،
ولكن اذكروا أن المضاربات المالية معرضة للخسارة
وإن أقوى ورقات الميسر قد تصطدم بأقوى منها ،
وإذا كنتم من غير فئة المضاربين فلا تنسوا أن
سمادتكم وذهبكم وفضتكم مودوعة عند صيرفي قد
ينزل به الأفلاس أو ممثلة بقراطيس مالية قد تسقط

الأ كدر الذي يمشی بين
النخيل يترك القمر
يتقطر ؛ ان أيام مصر
ترتعش حولنا ، والمساء
يدفع اللحظات بين يديه
كمسبحة سوداء ،
والسكون ذاته مسلاة
غريبة ، والرمال تتألق
كالحرير الأرجواني .

سيرة أبل الهولك

مشرقية شعرية في أربعة فصول

للكاتب الفنى مريى رستان

بقلما الأستاذ خلیل هنداو

الفصل الثالث

أبو الهول الأكبر

الصبراء المترامية ، الليل الشامل ، الفضاء ، الزمان ،
ضباب ذهبي يغمر الأشياء ؛ وأبو الهول الشامخ يبدو
بين الأشياء كأنه السكائن الجديراً لوجود .
يرتفع الستار : الليل داج ، والغيوم تنزاح قليلا
قليلا ، يبدو القمر والنجوم تبعث واحدة فواحدة كأنها
تنشر من النور ، وأبو الهول كأنه ينشر من الظلمة ،
وعلى قدمى أبي الهول عاشقان مصريان !

المشهد الأول

أبو الهول ، العاشقان

العاشق — تحب العودة مرعباً ؛ انظري فالليل

لى من العمر عشرون ، وها إني أحبك !

العاشقة : عيناك اللامعتان لهما من البحر رفته العميقة

العاشق — منذ أى زمن تهويننى ؟

العاشقة — أنى لى أن أعرف ؟

العاشق — ألا تعرفين ؟

العاشقة — يجب أن أهواك من اللحظة التى

كنتُ فيها ، وإنى لأذكرك فى كل أيامى الجميلة !

العاشق — قد انتصف الليل

(ينهض)

العاشقة — أين ترى الساعة ؟ أم إنى أريد

ألا أعرفها ، قصوت المؤذن الذى يتعالى لا يصل

إلينا ، هنا الساعة تمضى على استحياء لئلا نشعر بها

ولتذهبوا إلى أبواب المعابد محاولين فتحها فتجدونها

مقفلة فى وجوهكم فيخطر لىكم أن تاجأوا إلى الرهينة

التي لا يخرج المندرون منها إلا إلى قبورهم ، ولكن

الافقدار تسخر بكم وتغذف اليكم بزجاجة خمر وامرأة

عاهرة ، فاذا ما كرعتم الخمر وقدمت العاهرة الى

فراشكم ، فتبينوا مصيركم واعلموا الى أية هاوية

تنحدرون

فيلكس فارس

(يتبع)

أنجز من أن يشفيه من آلامه !

إنكم لتدركون إذ ذاك أن الله قد أوجد الحكمة

مدبرة لشؤونكم لاراهبة محبة نحنو على أسرة الأعلام

منكم . إنكم لتدركون بأن قلب الانسان لم يقل

كلمته الفصل عندما أعلن أنه لا يؤمن بشىء لأنه

لا يرى شيئاً ...

إنكم فى ذلك الحين لتجبلون أنظاركم على

ما حولكم مفتشين عما تنوهمون الأمل فيه

القرون — أيها الملك الحجري ! بهم تأمرنا
فنعمل ؟ نحن حرس لك !
أبو الهول — لم أعد أريد حراستك ؛ فذرني
وحيداً . كم نجوم تنظر إلى ؟ أريد أن أظلم وحدي
هذه الليلة

القرون — نحن هنا دوماً نحرسك
أبو الهول — دعني هذه الليلة السرية البارزة !
القرون — لتكن كلتك مسموعة !
(ينسحب كل خيال مطأطأ رأسه لواء أبي الهول
مدمماً بصلاته)

الخيال الأول — يا سيداً من حجر !
الخيال الثاني — يا أوزة الخلود !
الخيال الثالث — يا ملك الزمان !
الخيال الرابع — يا جدار الثواني !
الخيال الخامس — يا عجيبة مصر !
الخيال السادس — يا حكومة الموالم !
الخيال السابع — يا زهرة حجرية مردهرة
على صفحة السماء !
الخيال الثامن — يا خلية ثابتة تخرج فيها
اللحظات عسلاً !

الخيال التاسع — يا وثناً خالياً من الرافة
الخيال العاشر — يا شرفة المشاهد !
الخيال الحادي عشر — يا نور المشرق !
الخيال الأخير — يا إله السحب وداعاً ! . .
(تتوارى القرون ، أبو الهول وحده مع الليل والنجوم)

المشهد الثالث

أبو الهول وحده

أبو الهول — بلى ، لأترك وحدي ، ذلك خير !
أيها الليل إننا وحدنا الآن ، ليرمق أحدهنا

الماشق — إن الساعة قد تسجل في قبة
السماء الملائى بالنجوم ، لأنها تحدد الزمن بضربة
حزينة ؛ إبرتها المسائلة هي شعاع القمر الوهاج
الذي يهبط من عل ليعمل على تفريقنا ، يجب أن
نذهب هيا !

الماشقة — لماذا هذا التبكير ؟ فالرجوع
هو الموت ، وأنا أريد أن أحيى على فك ! الحياة
بدونك هي صحراء مخيفة جداً ، والهواء الذي يعجبك
يجماني أغار أحياناً منه . أريد أن ألثم عينيك وفك
الماشق — إن شفيتك رقيقتان

الماشقة — ومن أحب مثلنا ؟ لا أحد . . .
هذه المرة الأولى التي يذنب فيها أن يحبوا كما أحببتك ؛
ونحن ابتكرنا هذا الحب . ألا قبلة مستطيلة أيضاً
تطبعها على في المذهب ونعود بعد ذلك يا حبيبي !

الماشق — حبيبتي !
(يتعاقبان شديداً ، ثم يتعمدان
والفتاة تنثقت إلى الوراء)
الماشقة — هل رأيت ؟ لقد كنا في ظل
أثر . . . يقال إنه ذو وجه خالد جميل ، كم غبر به
من السنين هنا !

الماشق — إنني أجهل ذلك . . .
الماشقة — سترجع يوماً إذا شئت مع الفجر .
تعال فضع قدمك موضع قدمي ، فما عسى يكون
أبو الهول ؟

الماشق — لا أعلم . . .
(يعتمد الحبيبان)

المشهد الثاني

أبو الهول (وحده) القرون
تهب القرون في منتصف الليل وكن جالسات كالأشباح
السوداء على قدمي أبي الهول

الآخر ! لقد سئمت — طيلة النهار من الأنوار الوضاعة ، وحين تمودنى بارد الأنفاس ، وتمخط رحالك على حجرى ترناح روى ، أنا فى النهار مخلوق كبير من حجر ، مزيج أصم ، حتى إذا جئتني غمرتني بحياة جديدة ، وأصبح القمر مسروحى التى بها أجلب الهواء

أيها الليل البالغ من الكبر عتياً ! ها نحن شاخصان وجهاً لوجه . لننظر ؛ فالشمس المنبثقة تحمل أشعتها ، وأن باستطاعتنا — حين تبعث فى الروح — أن نتحد اتحاداً سامياً .

ماذا تقول ؟ وأنت مائل بابتسامتك الفضية ، هل نعلم عن هذه الكائنات والناس والآلهة والموتى شيئاً ؟ هنالك سميراميس ، وهنالك سارداناپال . وهذا الرماد الشاحب ، إنهم يدعون هذا كله صحراء . . . الصحراء كلمة كبيرة ذهبية لا تشبه شيئاً ، وعليها بدأت تنزل عظمتك وكبرياؤك .

هذا هو الرماد . الرماد ، الرماد ، . . . هذا — أيها الليل — هو رماد من لحونا فى القديم . إنهم ينعمون على سميتى ، ولكن من ذا أكلهم فى هوى السحيفة ؟ فالنهار طفل لا يعلم شيئاً ؛ النهار هو ذلك الطفل الكبير المتفائل الذى يضحك ؛ حين يكون الانسان مثلى ، يقدر أن يتكلم مع الليل ، مع الليل وحده لامع سواء ؛ على شفا اللانهاية المسدلة قناعها . إن عندى أسئلة ، والليل عنده نجوم ! (يتهد)

نجومك ، أعلم أسماءها الخفية ، وناظرى البعيد فى الليل يتسألى إلى تلك العيون ؛ وأنت بماذا تفكر ؟ أليس الأجدد بنا أن نصمت ؟ موسى لم يكن مهده إلا لحداً فسيحاً ، وقيصر كان ذلك

المقاتل الذى لم يمد ، بلى ! نعلم حقاً ما علمناه . قد وضع هنا قبمته المجدولة من طين . « قيصر » اسم زائر جداً لحظ زائل ! وماذا تقول عنه أيها الليل ؟ وعن ذلك المحارب المتجلى بالازايا الرومانية ؟ قيصر الكبير مات ميتة راع حقير . ليس القيصر بقيصر إذا لم يملك على كليو باطرة ، وهذا اسم عظيم أيضاً ؛ يُخيل إلى حين أفوه بهذا الاسم أن المساء زاد نداوة وطراوة ، وأن الفضاء غمرته أصوات نواقيس كانت تأتي إلى هذا المكان ! أما نرى أثرها فى هذا الطريق ؟ ألا تذكر مثلى ؟ ألا تذكر ؟ لقد غير عشرون قرناً دون أن يطمس أثر قدميها ، ودون أن يبيد وجودى شيء . كانت تضحك وتغشى بخطوة خفيفة ، هى خطوة الملكة الراحلة . كانت تضحك وأسمع ضحكاتها أحياناً ، وما أحد سمع مثلى رنين ضحكها الطافحة بالغبطة والسعادة ، كأنما سامعها يخيل إليه أنه يرى لؤاؤة تدوب .

(كأنه يسمع صوتاً ليل يدوى بالقرب من أذنه)

أنت تقول إنها كانت شقراء ، وأظن ذلك حقيقة . ألا ترانى أضحك سخرية حين يريد هؤلاء العلماء ، هؤلاء العلماء ، هؤلاء الجهال ، أن يسموا الماضى وينشروا الغابر ؟ وإنما أنت وحدك ، وأنا ، نهيم فى هذه الأجواز المظلمة ، وأنت وأنا قد رأينا كل شيء .

بلى ! قد تكون أنت أكثر علماً منى لأنك تهوى على الآفاق البعيدة بجناحك الكبير الأزرق ، قدور أنت حول الأرض ، وأنا أبقي راسياً فى مصر ! ولكنك لا تدرى — برغم ذلك — سرأ أنا أدرى به منك ، سر ليلة تموز ، وليلة ايلول ، لأنى كنت أفكر حين كنت ترتجف ! هنالك سر أعلمه دون

باريس — إن صوتك ، من أعماق الوجود قد نادى روحينا . إيه يا أبا الهول ، الآله الذى ليس بالآله ، والمرأة التى ليست بامرأة ! أجبنا ! لقد دعوتنا فجئنا

مارسيلوس — لقد جزنا طرقات مظلمة ، ووصلنا طارحين عنا ذلك العالم أبو الهول — وما يجدى الكلام مئى ؟ كل مخلوق لا نفع له . لا جواب لكما عندى . انطلقا فى طريقكما

مارسيلوس — لقد قلت لنا « تمالوا » باللهجة ليست بشرية

أبو الهول — لا أذكر هذا النداء لأنى كنت ألقى ندائى فى طيات السكون لا أعين أحداً . هذا حق . ولكنى لا أعلم من ينبئنى أن يحفظه ، ولا أدرى أبداً من يجب أن يلبي ويأتى ...

مارسيلوس — نحن !

أبو الهول — (بمعجزة) انما ؟ وما تمنيات بذلك ؟

مارسيلوس — (برهوه) بلى ! نحن ؟ رجلا نرغبان فى كلامك

أبو الهول — (يقهقه)

رجلان ... وما معنى ذلك ؟ رجلا ن ؟

مارسيلوس — وقد ساورها القلق .

أبو الهول — (هازئاً) هل تعلم قيمة الرجلين عندى ؟ إنهما أحقر من حبتين من الرمل فى الظلام البشرى ، لأنى رأيت من البشر ما يفوق عدداً ما رأيت من الرمل

مارسيلوس — ولكن فى كل رجل إنسانية بأسرها

الورى وحدى . لقد ظن « أوديب » أنه سيقدر على استخلاصه منى ذات مساء ، وقد ذهب يبشر الملأ بانتحاري . هاذا أضحك ساخرآ ، لأن أبا الهول يحيا بينما هلك (أوديب)

أأقتل نفسى ؟ بالسخرية القدر ! لقد التهمت الأفئدة من كل مكان ، ورأيت الجميع يبیدون وأنا باق سرمد ! أنتشق الظلمات كالغجر ، وأضرب بسياطى القرون التى تنقهقر ! وأحياناً كنت أبتنى أن أرف ، وأن أمد يدي إلى المجاز الانسانى ، ولكن الموت كان يكر عاجلاً ، والرجل الصلب كان عمره أقل مدى من خطرة من خطرأتى ! (يبدو مارسيلوس وباريس)

المشرب الرابع

أبو الهول ، مارسيلوس ، باريس

باريس — إن الطريق الموحش الذى يؤل بنا إليه قد انتهى ، وما هو ظله يتراءى لنا فى الليل . هذا هو ! لنقترب فى هذه الظلمة الحالكه ، ابدأ قبلى بالكلام ، فان بى خشية

مارسيلوس — لا ! كن أنت البادى . يا أخى !

باريس — أنت !

مارسيلوس — كله بأسلوب ابن !

باريس — الظل الذى ثقب — هذا الماء — موضع عينيه يُخيل إلى أنه يخرج عنهما نظرة عميقة كالوجود :

أبا الهول العظيم ! نحن هنا ... لقد سمعنا نداءك المجهول وقد أتيناك

مارسيلوس — بلى ! قد أتينا !

أبو الهول — أنظر إلى ما تبقى لي من عشرين قرناً بشرياً ! هذا الرماد الذى أضع عليه مخالبى ... لا لا ! دعنى وحدى فى هذه الزاوية ، فلا شئ عندى أقصه عليكم أيها الرجال الذين يتحدثوننى ! محدثى الوحيد هو هذه الهوة المكوكية . فيم تريدون أن تتحدث يا كائنات عمرها عمر ساعة ! هنا الذى يحيا دوماً إزاء من يموتون . ليس بيننا صلة تربطنا ! إننى لم أعد ألقى أبداً الكائنات التى أحببتها . فى البدء حين كانت الريح تهب عليه رقيقة ، أملت ناظرى إلى هذه الكائنات البشرية وما كنت أدري أن سيدركها العفاء وشيكا ! ولكنى رأيت كل هذه الكائنات تهوى إلى المنحدر ! وهكذا أصبحت لا أريد أن أجعل ناظرى الحجرى المروع فى هذه الانسانية الزائلة بمرارة

دعونى أنظر إلى السماء أيها المخادعون ! فالكواكب أطول عمراً من البشر ، وانطلقاؤها أبعد من انطفائكم

باريس — ربما كان ذلك ! ولكن هذه النجوم السابحة فى السماء الملتبمة ، هل تراها تتألم ؟ أجفانها الفضية ، ونظراتها النورانية ، ربما كان لها فى الأعلى خفقات أكثر طولاً ، ولكن الشئ الذى لا تملكه فى سمائها الزرقاء ، هو قلق الانسان الممدود على هذه الأرض ؛ وإذا قدر للانسان هذا الحظ المتقلب — كما قلت — فذلك لأنه مربع الاشتغال ، مربع الانطفاء

مارسيلليوس — ولهذا ترى أرواحنا تروح تحت الألم ، وأنت المشرف علينا ، الثاوى على صخرتك الباردة ، تريد منك أن تعلمنا — بصوتك —

لساذاً نحيا ، ومن هم الناس ؟ أنت الذى تعلم سر الكون ينبغي أن تقول لنا

أبو الهول — (بسخرية) :

هل تظن أننى أعلم ؟ لا أعلم إلا الابتسام ...

سر الكون ! وهل للكون سر فى الحقيقة ؟

باريس — أجب ! ماذا نصنع ؟ ما هو ألمانا ؟

وأين تتوارى هذه العوالم ؟ هذه النجوم ؟ وهذه الوجوه ؟

أبو الهول — ولهذا جئت تمكّر على هذه

المشاهد ! دعنى ! أريد أن أنام ...

باريس — قلت لنا : تعالوا !

أبو الهول — قلبكم المضطرب صور لكم ذلك .

إنى أنادى : تعالوا نداءً غير مقصود . وليرغم من

زعم أنه نودى فى هذا الظلام . انظروا إلى هؤلاء

الأطفال الذين ارتدوا الكبرياء ؛ هؤلاء الأقرام ،

أقرام لحظة يأتوننى ويرجعوننى ... هذه الصحراء

الترامية الأطراف ، الحمراء اللون مبربر راحتي .

فليتركونى نائماً ...

باريس — ستتحدث إلينا !

أبو الهول — ومن يجرو على التكلم كالأمر فى

هذه البقعة ؟ أين تراك قائماً وفى أى مكان ؟ أنى

أود رؤيتك . أجاهل أنت تلك العصور التى تحيط بي

من كل جانب ؟ أجاهل أنت أنى إذا أومأت بإشارة

صغيرة مرع يلبي — إيماءتى — ثلاثون قرناً —

حانية صاغرة لندائى !

باريس — كفى ...

أبو الهول — لا يستول عليك الغضب ! فقد

ألفت أن أسمع مثل هذا الصياح ، وأرانى محتملاً

كل هذا بسكون نفس . رأيت كل شئ يزول من

قديمك - بضيع زخرفه كزينة تنقادها
الأمواج ؛ وأكبر آثارنا الرفيعة تغدو خواتم في
أصابعك !

لا لا لا سوف تكلمنى . . . لأنى أريد
ذلك !

مارسيللوس - ستكلمنا ؟

أبو الهول - من قال : أريد !

باريس - أريد . . .

أبو الهول - ما عمرك ؟

باريس - فى الثلاثين . . .

مارسيللوس - فى العشرين . . .

أبو الهول - (ساخراً)

العشب أطول عمراً منك ! أطفال ! أطفال !

عشرون ربيعاً ! وتقولان هذا ! ترفمان الرأس

شائخاً وجفونك فى اضطراب . لاحق لكما فى

قولك . عشرون عاماً ! لحظة قصيرة ، نظرة ،

بسمه ، وإنها تلك المدة التى أقضيها لتحريك مرفق

الكبير . وتنهدة واحدة منى لها ضعف هذا العمر .

ولكن الفضاء هنا مغمم بالكهولة الخالدة . وهذا

هو الخلود يصفر على جناحي . هذه الشجرة ؛ هذه

النخلة البعيدة ؛ رأيتها حين وجدت ابنة فرعون

موسى عارياً فى ماء النيل . عشرون عاماً ! يالها من

جرأة غريبة ! تقول عشرون عاماً أيها الطفل !

الذى يعتقد بها ويُرهب عجباً . أيتها العشيبة الحقيرة

الناجحة على قايى الغامى ، ينبغى أن يكون له عشرون

عاماً حتى يكلمنى بهذه اللجة !

مارسيللوس - البطل إذا كان أكثر فتوة

وشباباً ، كان أكبر عظمة !

أبو الهول - إذا لم يكن لك إلا العشرون

فلقد ولدت إذا الآن . عد إلى بعد ألفى عام

آلهة وكهات وأبحرة . رأيت نابليون ولم أرتع
لرؤيته . . .

باريس - أراك تقابل كل الجهود البشرية
بابتسامة التهمك !

أبو الهول - لا لا ! إننى لأستخرمنه ولا أتهمك

إننى أحيا بعده ! ماذا تنتظرون منى ؟ كلمات ؟

أصدقة ؟ أنا لم أعد أعياً بشيء لكثرة مارأفت

وأشفقت ! الحقيقة ! سل القمر عنها . قد رأيت

كثيراً من الحقائق ، حتى أوقن بوحدة منها

مارسيللوس - يا أبا الهول !

أبو الهول - حقيقة ! لقد رأيت أكثر من

عشرين حقيقة . كل الحقائق ترحف إلى هذا المكان

باطلاً زحفها . وكل حقيقة مائة الأمان الذى

لا ينضب ، فذرونى أنام فى لحدى الرمل !

مارسيللوس - لا لا . . . ستقول لنا

باريس - لقد كنت مغنياً ، كنت شاعراً ،

وكانت الجماعة تعترف لى ، وقاعة التمثيل مقام

دعوى . أردت - يوماً - أن أؤلف قطعة عنك .

وبينا أفكر فيها وأجمع الفكر حولها ، إذ أبى أراك ،

أراك تتخايل - فى قاب أبياتى وتنادبنى ! وبسمتك

- فى الليل - كانت تضى لى سهراتى ، واسمك

حين يذكر يث فى روح البقطة

أبو الهول - صه ! إننى لم أدر شيئاً

باريس - ها أنا ، ذو الشهرة الكبرى التى

لبث (باسكال) قلقاً من أجالها ، شهرتى هى شهرة

« موسى » المتضرع للآله حين خط على صحيفته

اسمك العظيم الحزين . إن اضطراباً عنيفاً يرسو فى

روحى . لقد عمرتنى من كل شيء كنت أعبد

وأقدس . أنت وحدك عظيم . أنت وحدك الذى

تخشاه القلوب . أنت وحدك جميل ! الفن - تحت

الساقية الزرقاء حسامه ، لأنه طرح يوماً سيفه في
وثبة عظيمة من وثباته ، ولما أشرق النهار رأيت
هذه الساقية تلمع

ماذا تريد أن تعلم أيضاً ، يا واضح الأسئلة ؟
كل هذه الأسماء العظيمة التي لبثت نفوس أصحابها
شاحبة باهتة . كل هؤلاء القياصرة وهؤلاء الملوك
هؤلاء كلهم عندي أموات الأمس ، عرفتهم
وعاشرتهم . كل هؤلاء رأيتهم يموتون كالأشياء
الحقيرة ، لأنني كنت الشاهد الذي يرى كل شيء
يتلاشى أمام عينيه

كنت الحكم الخالي من الرأفة ، والقارب
الفارغ من ملاحيه ، والملوك من غير فردوس ،
وملاكة البحر من دون أمواج ، والماشقة من غير
قبلة ؟ وفي سر بري الحجري أرى كل شيء يركض
إلى زواله ، ويعلم أن الوجود هو الفناء ...

باريس — لا تريد هذا ...

أبو الهول — ماذا تريد أن تعلم ؟ أتسألني عن
أوديب ؟ إنه كان ملكاً كملوكنا . لقد كذب كثيراً
ها أنت ترى أنني لا أزال هنا

باريس — لا أطلب هذا ...

(يتبع) ضليل هندراوي

وحينذاك تنسلكم . لقد سئمت من الليل ، وضجرت
منكم ومن أسئلتكم ، أريد أن أنام قرناً دون أن
أجيبكم !

عشرون عاماً ! أجل قصيراً يكفي للؤلؤة تتفتق !
كايوباطرة — عمر نظرتها إلى النهار وهو يشرق !
جوليت — عمر سماحها بقبلة !

روميو — ذاك الطفل الوديع الخجل الذي
قال لأبي الهول بأن له عشرين ربيعاً
مارسلبيوس — كفالك سخريه مني !

أبو الهول — أنا ساخر منك ؟ إني أحدثكم
لأنكم أردتماني على ذلك . حسن ! سأنام قرناً . فإذا
تريدون أن تعلموا يا عابري الطريق ؟ إذا كانت
كايوباطرة ذات غداً لأمعة أو سود ؟ كنت
أحدث الليل عنها هذا المساء . لقد كانت غداً
ذهبية ، أذكر ذلك ، وهل تعلم أنها لم تكن جميلة
باريس — ولكن ...

أبو الهول — أن هذا يدهشك حقاً ...
ولكن أصغ إلى ضحكة زهرة محطمة ، وعنق شفاقة
إني لأبسط على كل شيء وجهها الغريب الوردى
الذي لا يؤسر . وجهها الغريب الطافح إلى الأبد
بالرقة الساخطة والجمال الغائب

آه من ذلك القارب الملائن بالمبيد والطيب
الذاهب دون أن أراه ! الملاك التي تتلاشى في القبل
وفي السحر ؛ في المشاهد الخلابة أحبوا كثيراً وشغفوا
كثيراً بهذا الوجه الصغير ، بهذا الوجه الزائل .
لقد مالقوها كثيراً ، وهذا هو كل أسطورتها
أنا نفسي كنت مستهماماً بها ؛ وقبل قليل
نطقت باسمها فقطرت من عيني دموعاً

والآن ماذا تريد أن تنتزع مني ؟ أسناداً وأدلة
أم أذاعات عن قيصر وبومباي ؟ قد تكون هذه

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد محمد الزيات

وهي قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

ومنها ١٥ قرشاً